

القول الوافي

في التحذير من افتراف المعاصي المؤدية للشقاء والحزن والآسي

تأليف

الشيخ مولاي التهاجي غيثاوي بن سيد محمد



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah
أسسها محمد رجاوت بن بوزرت
سنة 1971 م بيروت - لبنان

القول الواني

في التحنن من راقرة المعاصي

المورثين للشقاء والحنن والمآسي

تأليف

ابن مولاى التهايمى غيثاوى بن سيدى محمد



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

DKi

أسستها من قبل بيت بيروت سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

Title : AL-QAWL AL-WĀFI
FĪ AL-TAHDĪR MIN IQTIRĀF AL-MĀ'ĀSH
AL-MŪRITAH LILŠAQĀ' WAL-ḤUZN WAL-MĀ'ĪSH

Classification: Exhortation

Author : Al-šayḥ al-Tihāmi Ġitāwi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
Pages : 192
Size : 17*24
Year : 2011
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

الكتاب : القول الوافي
في التحذير من اقتراء المعاصي
المورثة للشقاء والحزن والمآسي

التصنيف : مواظ
المؤلف : الشيخ مولاي التهامي غيتاوي
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات : 192
قياس الصفحات: 17*24
سنة الطباعة : 2011
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى



جميع الحقوق محفوظة
2011



عن معاذ بن جبل، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ((يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا))، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، عينيه بالبكاء، ثم قال: يا معاذ - لقد سألت عن أمر عظيم، تحشر عشرة أصناف من أمتي أشتاتاً، وقد ميّزهم الله من جماعة المسلمين وبدّل صورهم: فمنهم: من هو على صورة القردة.
ومنهم: من هو على صورة الخنازير.
ومنهم: منكسون؛ أرجلهم أعلاهم، يسحبون على وجوههم.
ومنهم: من يحشر أعمى يقاد.
ومنهم: من يحشر أصم أبكم لا يعقل.
ومنهم: من يحشر يمضغ لسانه وهو مدلى على صدره، يسيل القيح من فيه، يقذره أهل الجمع.
ومنهم: من يحشر مقطّع اليدين والرجلين.
ومنهم: من يحشر مصلوباً،
على جذوع نخل من النار.
ومنهم: من يحشر أشدّ تنناً من الجيف.
حديث شريف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

مقدمة كتاب القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

الحمد لله الذي فتح لمن أناب إليه باب الرحمة والغفران، واستدرج بالحلم والإمهال من جاهره بالفسق والعصيان، شملت قدرته كل مخلوق، وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور قدر مقادير الخلائق وآجالهم وكتب آثارهم وأعمالهم، وقسم بينهم معاشهم وأموالهم وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور.

وأشهد أن سيدنا محمد عبد الله ورسوله وخيرته من بريته وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده، أعرف الخلق به، وأقومهم بخشيته، وأنصحهم لأُمته، وأصبرهم لحكمه وأشكرهم لنعمه، وأقربهم إليه وسيلة وأعلاهم عنده منزلة وأعظمهم عنده جاهاً وأوسعهم عنده شفاعاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ﷺ.

أما بعد: قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وقال جل وعلا: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ

ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾.

هذه الآيات النيرات البينات تحثنا معاشر المسلمين إلى التوبة والإنابة والرجوع لله تعالى وذلك بمقتضى ما جبل عليه الإنسان من وازع المعاصي والهفوات والسهو والنسيان والغفلات عن الملك المنان لأجل هذه الفائدة جمعت هذه الدرر من كتب أعلام الأمة ومشايخها ككتب ابن القيم وابن حجر الهيتمي والذهبي وغيرهم من بعض كتب الحديث وآيات بينات من كتاب الله تعالى التي تحذرنا من اقتراف المعاصي والذنوب وأسميته "القول الوافي من التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للحزن والمآسي".

أذكر فيها شر المعاصي وعاقبتها الوخيمة وأذكر نفسي وإخواني مما ينجر عن الإصرار على الآثام والذنوب وما تؤل إليه عاقبة العاصي من الويل والشور.

وهذا لما رأيت الناس قد رتعوا في هذا السم القاتل وخاصة منهم الشباب فشفت على نفسي وعلى إخواني ففزعت إلى جمع هذه النصوص والأحاديث والآيات القرآنية وأقاويل جمهور العلماء واستقطبت منها هذه الحكم البالغة لعل الله ينفعني وإياهم بها وهي في الحقيقة تلقيحات شافية وتوجهات كافية لمن أراد الله به العافية وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين.

أخوكم في الله مولاي التهامي بن المرحوم سيدي محمد

غيتاوي عضو المجلس الإسلامي الأعلى وشيخ مدرسة الإمام

مالك بن أنس أوقديم أدرار الجزائر

خريج معهد الشيخ سيدي محمد بالكبير رحمه الله

ادرار الجزائر

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي

المورثة للشقاء والحزن والمآسي

مثل وقوفك يوم الحشر عريانا مستعطفًا قلق الأحشاء حيرانا
النار تزفر من غيظ ومن حنق على العصاة وتلقى الرب غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهل وانظر إليه ترى هل كان ما كانا
لما قرأت كتاباً لا يغادر لي حرفاً وما كان في سر وإعلانا
قال الجليل خذوه يا ملائكتي مروا بعبدي إلى النيران عطشاناً
يا رب لا تخزنا يوم الحساب ولا تجعل لنارك فينا اليوم سلطاناً

قال الإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله:

اعلم وفقني الله وإياك لطاعته، وأنالنا من سوابغ رضاه ومهابته أن الله تعالى
حذّر عباده من معصيته بما أعلمهم به من نواميس ربوبيته وأقامه من سطوات قهره
وجبروته ووحدانيته، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ﴾ أي أغضبونا ﴿ أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾
الزخرف، وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾
الأعراف، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ
دَابَّةٍ ﴾ فاطر، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء، وقال
تعالى: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء . . .

وفي الحديث الصحيح: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً
فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا
تبحثوا عنها».

8 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يغار والمومن يغار، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه».

وفيهما أنه ﷺ قال: «لا أحد أغير من الله لذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ﷻ».

وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكتت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب واستغفر صقل قلبه وإن لم يتب زادت حتى تعلوا قلبه»: أي تغشاه وتغطيه تلك النكتة السوداء، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين.

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

وعن ابن الجوزي أنه ذكر أم سليم أم أنس بن مالك رضي الله عنهما أنها قالت «يارسول الله أوصني، قال: اهجري المعاصي فإنها أفضل هجرة، وحافظي على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثر من ذكر الله فإنه لا يأتي العبد بشيء أحب إلى الله من كثرة ذكره» وسأل أبو ذر رسول الله ﷺ فقال: «يارسول الله أي الهجرة - أي أصحابها - أفضل؟ قال: من هجر السيئات».

وعن حذيفة ؓ أنه قيل له: هل تركت بنو إسرائيل دينهم أي حتى عذبوا بأنواع العذاب الأليم، كمسخهم قردة وخنازير وأمرهم بقتل أنفسهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه وإذا نهوا عن شيء ركبوه حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا صاحب الذنب لم تأمن سوء عاقبتك وتتبع الذنب أعظم من الذنب فمن قلة حيائك من ملك اليمين والشمال وأنت على الذنب: أي بقاءك عليه بلا توبة أعظم من الذنب الذي عملته، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 9

الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب، ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب عليه الصلاة والسلام فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله؟ إنما كان ذنبه أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه عنه فلم يُعنه عليه، ولم ينه الظالم عن ظلم هذا المسكين فابتلاه الله تعالى.

وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى من عصيت، وقال الحسن: يا ابن آدم ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة، وقال محمد بن كعب القرظي: ما عبد الله بشيء أحب إليه من ترك المعاصي.

ويؤيده قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»، فأتى بالاستطاعة في جانب المأمورات ولم يأت بها في جانب المنهيات إشارة إلى عظيم خطرها وقبيح وقعها، وأنه يجب بذل الجهد والوسع في المباحة عنها سواء استطاع ذلك أم لا، بخلاف المأمورات فإن العجز له مدخل فيها تركاً وغيره فتأمل ذلك.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله تعالى، وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى: يا موسى أول من مات، أي هلك وخسر، من خلقي إبليس، وذلك أنه أول من عصاني وإنما أعد من عصاني من الأموات.

وقال حذيفة: إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يصير قلبه كله أسود، ويؤيده قول السلف: المعاصي بريد الكفر أي رسوله باعتبار أنها إذا أورثت القلب هذا السوداء وعمته لم يقبل خيراً قط، فحينئذ يقسو وتخرج منه كل رحمة ورأفة وخوف فيرتكب ما أراد ويفعل ما أحب، ويتخذ الشيطان ولياً من دون الله ويضله ويغويه ويعده ويمنيه، ولا يرضى منه بدون الكفر ما وجد له إليه سبيلاً.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا

10 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

مَرِيدًا ﴿١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٨﴾ وَلَا أَضِلُّهُمْ وَلَا أُضِلُّهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ ءَاذَانَ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرْمَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿٢١﴾ ﴿النساء.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥٦﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥٧﴾﴾ فاطر

وروى أحمد في مسنده عن وهب قال: «إن الرب سبحانه وتعالى قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: إني إذا أطاعني العبد رضيت عنه وإذا رضيت عنه باركت فيه، وفي آثاره وليس لبركتي نهاية وإذا عصاني العبد غضبت عليه وإذا غضبت عليه لعنته ولعنتي تبلغ السابع من ولده».

ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٢٠٠﴾﴾ النساء، وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٠١﴾﴾ الفاتحة

وفي الحديث: «كما تدين تدان» أي كما تفعل يفعل معك فالقصاص إن لم يكن فيك أخذ من ذريتك، ولذا قال تعالى: ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ النساء، فإن كان لك خوف على صغارك وأولادك المحاويج المساكين فاتق الله في أعمالك كلها لا سيما في أولاد غيرك، فإن الله تعالى يحفظك في ذريتك ويسر لهم الحفاظ والخير والتوفيق ببركة تقواك ما تقرُّبه عينك بعد موتك وينشرح به صدرك، وأما إذا لم تتق الله في أولاد الناس ولا في حُرْمهم، فاعلم أنك مؤاخذ في ذلك في نفسك وذريتك وأن ما فعلته كله يفعل بهم.

فإن قلت: هم لم يفعلوا فكيف عوقبوا بزلات آبائهم وانْتقم منهم

بمعاصي أصولهم؟

قلت: لأنهم أتباع لأولئك الأصول وناشئون عنهم. ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ۖ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ قيل كان ذلك الصالح هو الجد السابع لأم.

فإن قلت: قد نجد في فرع العصاة صالحاً وبالعكس، ألا ترى ابن نوح وابن آدم القاتل، ﷺ على آدم ونوح وسائر الأنبياء والمرسلين وسلم.

قلت⁽¹⁾: هذا مع قتله لأمر باطن يعلمه الله تعالى لولم يكن عنه منه إلا الإعلام بعجز الخلق حتى الكمل منهم عن هداية أقرب الناس إليهم (وليخش الذين) إلخ أن بعض الأصول ربما عوقب به الفروع ولا يلزم من ذلك يفرض استواء الأمرين، إلا أن صلاح الأصول ربما انتفع به الفروع فليس ذلك أمراً كلياً فيهما، وربما كان للفاسق ظاهراً أعمال صالحة باطنة يشبه الله بها في ذريته فيتعين الأخذ بقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿النساء

وفي مسند أحمد أيضاً «كتبت عائشة إلى معاوية رضي الله عنهما: أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس دأماً» وقال أبو الدرداء: احذر من أن تبغضك قلوب المؤمنين وأنت لا تشعر، قال الفضيل: هو العبد يخلو بمعاصي الله فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ولما ارتكب الدين محمد بن سريّن، وحل به من ذلك غمّ شديد، قال: إني لأعرف سبب هذا الغم أصبت ذنباً من منذ أربعين سنة.

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه

(1) القائل هو ابن حجر الهيتمي في كتاب: الزواجر.

12 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

مذلة. وقال يحيى بن معاذ: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تشمت بي الاعداء ثم هو يشمت بنفسه كل عدوا قيل له كيف ذلك؟ قال يعصي الله فيشمت في القيامة كل عدو. وقال مالك بن دينار: أوحى الله الى نبي من الأنبياء أن قل لقومك لا يدخلوا مداخل أعدائي، ولا يلبسوا ملابس أعدائي، ولا يركبوا مراكب أعدائي، ولا يطعموا مطاعم أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي، وقال الحسن: هانوا على الله فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم، وقال: إن الرجل أي الكامل ليذنب الذنب فما ينسأه ولا يزال متخوفاً منه حتى يدخل الجنة، وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن المؤمن يرى ذنوبه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار.

وعن عمار بن دادا قال: قال لي كهمس: يا أبا سلمة أذنبت ذنباً فأنا أبكي عليه منذ أربعين سنة، قلت: ما هو؟ قال: زارني أخ لي فاشتريت له سمكاً بدائق فلما أكل قمت إلى حائط جار لي فأخذت منه قطعة طين فغسل بها يده فأنا أبكي على ذلك منذ أربعين سنة.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أما بعد فإذا مكنك الله القدرة من ظلم العباد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تفعل بهم أمراً من الظلم إلا كان زائلاً عنهم: أي بموتهم بقي عليك أي عاره وناره في الآخرة، وأعلم أيضاً أن الله أخذ للمظلوم حقه من الظالم، وإياك إياك أن تظلم من لا ينتصر عليك إلا بالله تعالى، أي أن الله تعالى إذا علم التجاء عبد إليه بالصدق والاضطرار انتصر له على الفور ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ النمل وقال عبد الله بن سلام: لما خلق الله الملائكة رفعت رؤوسها إلى السماء فقالت ربنا مع من أنت قال: مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه، وقال بعض السلف: يا أهل المعاصي لا تغتروا بطول حلم الله عليكم واحذروا أسفه أي غضبه بسبب المعاصي فإنه قال تعالى ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الزخرف، وقال يعقوب القاري

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 13

رأيت في النوم رجلاً آدم أي اسمه طوالاً والناس يتبعونه، فقلت من هذا فقالوا: أويس القرني، فتبعته فقلت: أوصيني رحمك الله تعالى، فكلح أي عبس في وجهي، فقلت مسترشداً فأرشدني أرشدك الله فأقبل علي وقال: ابتغ رحمة الله عند طاعته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك، ثم ولى وتركني وفي التراث: أيا بني إسرائيل إني كنت أحبكم فلما عصيتموني أبغضتكم، وعن عبد الله بن زيد قال: غرني القمر فمررت في المقابر فإذا أنا برجل قد خرج من قبر يجد سلسلة فإذا رجل أخذ بالسلسلة فجذبه حتى رده إلى قبره فسمعتة يضربه وهو يقول: ألم أكن أصلي ألم أكن أغتسل من الجنابة ألم أكن أصوم؟ قال: بلى، ولكنك كنت إذا خلوت بالمعاصي لم ترقب الله تعالى، وقال إبراهيم التيمي: كنت كثير التردد إلى المقابر أذكر الموتى والبلى فينما أنا ذات ليلة بها إذ غلبتني عيناى فنمت فرأيت قبراً قد انشق وسمعت قائلاً يقول: خذوا هذه السلسلة فاسلكوها في فيه وأخرجوها من دبره، فإذا الميت يقول يارب ألم أكن أقرأ القرآن ألم أحج بيتك الحرام؟ وجعل يعدد أفعال البر شيئاً بعد شيء، وإذا قائل يقول كنت تفعل ذلك ظاهراً، فإذا خلوت بارزتني بالمعاصي، وعن عبد الله بن المديني قال: كان لنا صديق فقال: خرجت إلى ضيعتي فأدركتني صلاة المغرب فأتيت إلى جنب مقبرة فصليت المغرب قريباً منها، بينما أنا جالس إذا سمعت من جانب القبور أنيئاً فدنوت إلى القبر الذي سمعت منه الأنين وهو يقول: آه قد كنت أصوم قد كنت أصلي فأصبني قشعريرة، فدعوت من حضرني فسمع مثل ما سمعت ومضيت إلى ضيعتي، ورجعت يعني في اليوم الثاني وصليت في موضعي الأول وصبرت حتى غابت الشمس وصليت المغرب ثم استمعت إلى ذلك القبر فإذا هو يئن ويقول، آه قد كنت أصلي قد كنت أصوم، فرجعت إلى منزلي ومرضت بالحمى شهرين، وأقول: قد وقع لي نظير ذلك، وذلك أنني كنت وأنا صغير أتعاهد قبر والدي رحمه الله للقراءة عليه فخرت يوماً بعد صلاة الصبح بغلس في رمضان، بل أظن أن ذلك كان في العشر الأواخر بل في ليلة القدر، فلما جلست على قبره وقرأت قليلاً من القرآن

14 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

ولم يكن بالمقبرة أحد غيري فإذا أنا أسمع التأوه العظيم والأنين الفظيع بآه آه وهكذا بصوت أزعجني من قبر مبني بالنورة والجص له بياض عظيم فقطعت القراءة واستمعت فسمعت صوت ذلك العذاب من داخله وذلك الرجل المعذب يتأوه وتأوهاً عظيماً بحيث يقلق سماعه القلب ويفزعه فاستمعت إليه زمناً فلما وقع الإصفرار خفي حسه عني، فمر بي إنسان فقلت قبر من هذا؟ قال: هذا قبر فلان لرجل أدركته وأنا صغير وكان على غاية من ملازمة المسجد والصلوات في أوقاتها والصمت عن الكلام وهذا كله شهادته وعرفته منه فكبر علي الأمر جداً لما أعلمه من أحوال الخير التي كان ذلك الرجل متلبساً بها في الظاهر، فسألت واستقصيت الذين يطلعون على حقيقة أحواله فأخبروني أنه كان يأكل الربى فإنه كان تاجراً ثم كبر وبقي معه شيء من الحطام، فلم ترضى نفسه الظالمة الخبيثة أن يأكل من جنبه حتى تأتية الموت بل سول له الشيطان محبة المعاملة بالربا حتى لا ينقص ماله فأوقعه في ذلك العذاب الأليم حتى في رمضان حتى في ليلة القدر، ولما قلت ذلك لبعض أهل بلده قال لي: أعجب منه عبد الباسط رسول القاضي فلان وهذا الرجل أعرفه أيضاً كان رسولاً للقضاة أول أمره ثم صار ذا ثروة فقلت: وما شأنه؟ قال: لما حفرنا قبره لننزل عليه ميتاً آخر رأينا في رقبته سلسلة عظيمة، ورأينا في تلك السلسلة كلباً أسود عظيماً مربوطاً معه في تلك السلسلة وهو واقف على رأسه يريد نهشه بأنياه وأظفاره فحفناه خوفاً عظيماً وبادرنا برد التراب في القبر، قالوا: ورأينا فلاناً عن رجل آخر لما حفرنا قبره لم يبق منه إلا جمجمة رأسه فإذا فيها مسامير عظيمة القدر عريضة الرؤوس مدقوقة فيها كأنها باب عظيم، فتعجبنا منها وردينا عليها التراب، قالوا: فحفرنا عن فلان فخرجت لنا حية عظيمة من قبره ورأيناها مطوقة به فأردنا دفعها عنه فتقسست علينا حتى كدنا كلنا نهلك عن آخرنا، فأعوذ بالله من عذاب القبر الناشئ عن غضب الله ومعصيته، وقال سليمان ابن عبد الجبار: أذنبت ذنباً فاحتقرته فأتيت في منامي فقيل لي: لا تحتقرن من الذنوب شيئاً وإن كان صغيراً، إن الصغير عندك اليوم يكون كبيراً غداً عند الله، وقال علي بن سليمان الأنماطي: رأيت

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 15

علي بن أبي طالب ؑ في المنام على خلقته التي وصفوه بها وهو يقول:
لولا الذي لهم ورد يقومونا وآخرون لهم سرد يصومونا
للكدكة أرضكم من تحتكم سحر لكنكم قوم سوء لا تطيعونا
واعلم أن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى وخشية انتقامه
وسطوته، وحذر عقابه وغضبه وبطشه ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ
فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النور. وورد أنه ؑ دخل على شاب وهو يعالج سكرات
الموت فقال: «كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي، فقال
رسول الله ؑ لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو
وأمنه مما يخاف» وعن وهب بن الورد قال: كان عيسى ؑ وعلى نبينا وعليه وعلى
سائر الأنبياء والمرسلين وسلم يقول: حب الفردوس وخشية جهنم يورثان الصبر
على المصيبة ويبعدان العبد من لذات الدنيا وشهواتها ومعاصيها، وعن الحسن قال
والله لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أنفق أحدهم عدد الحصى ذهباً أن لا ينجوا
لعظيم الذنب في نفسه.

وقال رسول الله ؑ: «هل تسمعون ما أسمع؟ أظت السماء وحق لها أن تظط
والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد لله تعالى أو قائم أو
راكع ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم أو لصعدتم - أي
الجبال - تجأرون لله خوفاً من عظيم سطوته وشدة انتقامه».

وفي رواية «لا تدرون تنجون أو لا تنجون» وقال بكر بن عبد الله المزني:
ممن أتى الخطيئة وهو يضحك دخل النار وهو يبكي، وفي الحديث: «لو يعلم
المؤمن بكل الذي عند الله من عذاب لم يؤمن النار»، وفي الصحيحين: «قام
رسول الله ؑ حين أنزل عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء، فقال: يا
معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا
أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله لا أغني عنك من الله شيء، يا صفية
عمة الرسول لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني من ما شئت لا

16 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

أغني عنك من الله شيئاً» وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ ﴿١٠٦﴾ المؤمنون: يا رسول الله أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله؟ قال: لا يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه» رواه أحمد، وقيل للحسن البصري يا أبا سعيد كيف تصنع إذا جالست قوماً يحدثونا عن الرجاء حتى تكاد قلوبهم تطير! فقال له: إنك والله لأن تصحب قوماً يخوفونك حتى تدرك أمناً خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف، ولما طعن عمر بن الخطاب ؓ وقُرِبت وفاته قال لابنه: ويلك ضع خدي على الأرض لا أم لك وويلي وأي ويلي إن لم يرحمني، وقال له بن عباس: ماهذا الخوف يا أمير المؤمنين وقد فتح بك الله الفتوح ومصر بك الأمصار وفعل الله بك وفعل؟ قال: وددت أن أنجوا لا علي ولا لي، وفي رواية لا أجداً ولا وزراً، وكان زين العابدين علي بن الحسين ؓ إذا توضأ ورفع من وضوئه أخذته رعدة فقليل له في ذلك، فقال: ويحكم، أتدرون إلى من أقوم وإلى من أريد أن أناجي، وقال أحمد ابن حنبل: الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه، وفي الصحيحين أنه ؓ ذكر من السبعة الذين يظلمهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله رجلاً ذكر الله أي وعيده وعقابه خالياً ففاضت عيناه: أي خوفاً مما جناه واقره من المخالفات والذنوب وفي حديث ابن عباس عن النبي ؓ أنه قال: «عينان لا تمسهما النار عين بكت في جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى».

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ؓ أنه قال: «كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله، وعيناً سهرت في سبيل الله وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى».

وأخرج الترمذي وقال حسن صحيح عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يلج - أي لا يدخل - النار رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم» وقال

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 17

عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما: لأن أدمع دمعة من خشية الله لأحب إلي من أتصدق بألف دينار، وقال عون بن عبد الله: بلغني أنه لا تصيب دموع الإنسان من خشية الله مكاناً من جسده إلا حرم الله ذلك المكان على النار وكان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء أي فوران وغليان كغليان القدر على النار، وقال الكندي: البكاء من خشية الله تطفئ الدمعة منه أمثال البحار من النار، وكان ابن السماك يعاقب نفسه ويقول لها: تقولين قول الزاهدين وتعملين عمل المنافقين، ومن ذلك الجنة تطلبين أن تدخلها، هيهات - هيهات للجنة قوم آخرون ولهم أعمال غير ما نحن عاملون.

وعن سفيان الثوري قال: دخلت على الصادق فقلت له: يا ابن رسول الله أوصني قال: يا سفيان لا مروءة لكذب ولا راحة لحسود ولا إخاء لملوك ولا سؤدد لسيئ الخلق، قلت: يا ابن رسول الله زدني، قال: يا سفيان كف عن محارم الله تكن عابراً وأرض بما قسم الله لك تكن مسلماً، وأصحب الناس بما تحب أن يصحبوك به تكن مؤمناً، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره أي للحديث: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» ، وشاور في أمرك الذين يخشون الله، قلت: يا ابن رسول الله زدني، قال: يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله إلى طاعة الله، قلت: يا ابن رسول الله زدني، قال: أدبني أبي بثلاث: قال لي: أي بني إن من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم، وقال ابن المبارك: سألت وهيب بن الورد أيجد طعم العبادة من يعصي الله تعالى؟ قال لا! ولا من يهم بمعصية الله تعالى وقال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي: الخوف هو النار المحرقة للشهوات، فإذا فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة وبقدر ما يكف عن المعصية ويحث على الطاعة، وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والروع والتقوى والمجاهدة والأعمال الفاضلة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى؟ كما علم من الآيات والأخبار كقوله تعالى ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ

18 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

يَرْهَبُونَ ﴿ الأعراف، وقوله تعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ ﴾ البينة: قوله تعالى: ﴿ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران، وقوله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿ ١٥ ﴾ ﴾ الرحمان: وقال تعالى ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ نَخَشِيَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ الأعلى، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فاطر، وكل ما دل من الآيات والأحاديث على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف، لأن الخوف ثمرة العلم.

وأخرج ابن أبي الدنيا أنه عليه السلام قال: «إذا اقشعر جسد العبد من مخافة الله تعالى تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» وقال عليه السلام: «قال سبحانه وتعالى: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمين إن أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمتته يوم القيامة» وقال أبو سليمان الداراني: كل قلب ليس فيه خوف الله فهو خراب، وقد قال تعالى: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الأعراف، وقال مالك بن دينار: البكاء على الخطيئة يحط الذنوب كما يحط الريح الورق اليابس وقال بعض السلف: لو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل، وهذا عمر أفضل الناس بعد أبي بكر رضي الله عنه وقد بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ومع ذلك يسأل حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلق بالمنافقين والفتن فقال له: يا حذيفة هل أنا من المنافقين؟ فقال لا والله لست منهم يا أمير المؤمنين، فخاف عمر أن تكون نفسه قد لبست عليه حالة وسترت عيوبه عنه، وعظم ذلك عليه حتى جوز أن يكون ذلك الوعد مشروط بشروط لم تحصل منه فلم يتغير به وقال الحسن: بكى أبونا آدم عليه السلام عليه وسلم حين أهبط من الجنة ثلاث مئة عام حتى جرت أودية بسرنديب من دموعه، وسرنديب محل من الهند أعدل البلاد مطلق نزل به آدم حتى لا يؤثر فيه مرافقة الجنة أضرار بيناً، ولو نزل بغيره ما لم يعتدل حره وبرده في سائر الأزمنة لأضر به إضرار بيناً، وقال وهيب بن الورد: عاتب الله تعالى نوحاً عليه السلام في ابنه فأنزل عليه ﴿ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 19

تَكُونُ مِنَ الْجَهْلِيلِينَ ﴿ هود: بكى ثلاث مئة عام حتى صار في خديه أمثال الجداول أي الأنهار الصغار من البكاء، وقال وهب بن منبه كان داود يبكي حتى يبيل ما بين يديه من دموعه، ويبكي حتى ينبت العشب من دموعه، ثم يبكي حتى ينقطع صوته، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان يحيى بن زكريا صلى الله على نبينا وعليهما وسلم يبكي حتى تقطع خده وبدت أضراسه فقالت له أمه: لو أذنت لي حتى أتخذ لك قطعتين من لبوذ توارى بهما أضراسك عن الناظرين، فأذن فألصقتهما بخديه فكان يبكي فكانتا تبتلان بالدموع فتجيء أمه فتعصرهما فتسيل دموعه على ذراعيها وفي صحيح البخاري عن عائشة، «كان أبو بكر رجل بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن» وفيه أيضاً: «أنه ﷺ لما مرض فأمر أبا بكر أن يصلي بالناس قالت يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف: أي يغلب عليه الحزن إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء» وقال عبد الله بن عيسى: كان في وجه عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء، وقال ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْأَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الزمر، هو عثمان ابن عفان ؓ، وقال معاوية بن أبي سفيان لضرار: صف لي علياً، قال: ألا تعفيني؟ قال: بل صفه، قال: أولاً تعفيني؟ قال: لا أعفيك. قال: أما إذا أنه لا بد فإنه كان بعيد المدى: أي واسع العلوم والمعارف لا تدرك غاية فيهما، شديد القوى: أي في ذات الله ونصرة دينه، ويقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويتأسس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة يقلب كفيه: أي تأسفاً حزناً إذاً هذا فعل المتأسف الحزين، ويخاطب نفسه أي بالمزعجات والمقلقات، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما حضر، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعيناه ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه من المساكين، ولا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد بالله رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل ستوره وغارت نجومه وقد تمثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم: أي اللديخ، ويبكي

20 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

بكاء الحزين وكأنني أسمعه يقول: يا ربنا يا ربنا يتضرع إليه ثم يقول يا دنيا يا دنيا إلي تعرضت أم إلي تشوقت، هيهات هيهات غري غيري قد أبنتك ثلاث لا رجعت لي فيك فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق، فذرفت عيون معاوية على لحيته فما ملكها وهو ينشفها بكمه وقد اختنق عليه قال يا ذرار «قال معاوية: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك» قال: حزن من ذبح ولدها في حجرها فلا ترقأ عبرتها ولا يسكن حزنها، وبكى ابن عباس رضي الله عنهما حتى صار كأنه الشر البالي، وبكى تلميذه ابن جبير حتى عمشت عيناه، وعن عبد الرحمان بن يزيد بن جابر قال: قلت ليزيد بن مرثد: ما لي أرى عينك لا تجف؟ قال: وما سألتك عنه؟ فقلت له: عسى الله أن ينفعني به! قال يا أخي إن الله قد توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لولم يتوعدني أن يسجنني إلا في حمام لكنت حراً أن لا تجف لي عين، قال: فقلت له: فهكذا أنت في خلواتك، قال: وما سألتك عنه؟ قلت: عسى الله أن ينفعني بذلك! فقال: والله إن ذلك لا يعرض لي حين أسكن إلى أهلي: أي لإرادة وطئها، فيحول ذلك بيني وبين ما أريد، وإنه ليوضع الطعام بين يدي فيعرض لي فيحول بيني وبين أكله حتى تبكي إمرأتي ويكي صبياننا لا يدرون ما أبكانا، ولربما أضجر ذلك امرأتي فتقول: يا جعفر بن سليمان: اشتكى ثابت البناني عينه، فقال له الطبيب: اضمن لي خطة تبرأ عينيك، فقال وما هي؟ قال: لا تبك، قال: وأي خير في عين لا تبكي؟ وقال الحسن بن عرفة: رأيت يزيد بن هارون بواسط وكان أحسن الناس عينين! ثم رأيت بعد ذلك مكفوف البصر، فقلت: يا أبا خالد ما فعلت العينان الجميلتان؟ قال: ذهب بهما بكاء الأسحار.

ودخل بعض أصحاب فتح الموصلي عليه فرآه يبكي ودموعه خالطها صفرة فقال: بكيت الدم؟ قال: نعم، قال: على ماذا؟ قال: على التخلف على واجب حق الله، ثم رآه في المنام بعد موته، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قال: فما صنع في دموعك؟ قال: قربني، فقال لي: يا فتح على ماذا بكيت؟ قلت يا رب

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 21

لتخلفني عن واجب حقك فبكيت، الدم قلت خوفاً أن لا تفتح لي، فقال يا فتح ما أردت بهذا كله، وعزتي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة.

وذكر أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن عطاء، قال: «دخلت أنا وعبيد بن عمر على عائشة فقلت لعبيد بن عمر: قد آن لك أن تزورنا؟ فقال أقول يا أماء كما قال الأول: زر غباً تزدد حباً، فقلت دعونا من بطالتكم هذه، فقال ابن عمر: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، قال فسكتت ثم قالت: لما كانت ليلة من الليالي قال يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي، قلت والله إني لأحب قربك وأحب ما يسرك، قالت فقام فطهر ثم قام يصلي، قالت فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت وكان جالساً فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله، لم تبكي وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الآية كلها. واعلم أن البكاء إما من حزن وإما من وجع، وإما من فزع وإما من فرح، وإما من شكر وإما خشية من الله تعالى، وهذا هو أعلاها درجة وأغلاها ثمناً في الدار الآخرة، وأما البكاء للرياء والكذب فلا يزداد صاحبه إلا طرداً وبعداً ومقتاً، وحق لمن لم يعلم ما جرى له به القلم في سابق علم الله تعالى من سعادة مؤبدة أو شقاوة مخلدة، وهو فيها بين هاتين الحالتين قد ركب المحرمات وخالف خالقه في المنهيات أن يكثر بكاءه وأسفه وحزنه ونحيبه ولهفه، وأن يهجر الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يجأر إلى الله على ما سلف منه من سوابق مخالفته وقبائح شهوته، عسى أن يوفقه إلى التوبة النصوح وأن يخرج من ظلمات الجهل والعصيان إلى العلم والطاعة وما لهما من ثمرات المعرفة والفتوح، قال بعضهم: أرق الناس قلباً أقلهم ذنباً.

وفي حديث عقبة بن عامر ؓ قال: «يا رسول الله ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك».

22 القول الرافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

وقال ﷺ «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» ومن ثم غلب الخوف على الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء، وغلب المكر على الظلمة الأظغياء والفراغة الأغبياء والجهلة والعوام والرعاى والطغام حتى كأنهم حوسبوا وفرغ منهم فلم يخشوا سطوة العقاب ولا نار العذاب ولا بعد الحجاب ﴿نُسُوا اللَّهَ فَأَنْسَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الحشر - وفي صحيح البخاري عن أم العلاء امرأة من الأنصار «أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة، قالت، فطار لنا: أي وقع في سهمنا على عثمان بن مظعون من أفضل المهاجرين وأكابرهم ومتعبدتهم وممن شهد بداراً فاشتكى فمرضناه، حتى إذا توفي وجعلناه في ثيابه دخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى، فقال لي رسول الله ﷺ، وما يدريك أن الله أكرمه؟ فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لا أرجوا له الخير»: أي فالإنكار عليها أنما هو من حيث إنها أبرزت تلك الشهادة جازمة بها متيقنة لمقتضاها من غير مستند قطعي تعتمد عليه في ذلك، فكان اللائق بها أن تبرزها في حين الرجاء لا الجزم كما فعل رسول الله ﷺ ثم قال ﷺ «ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فوا الله لا أزكي أحداً بعده أبداً أي على جهة الجزم والتيقن، بل على جهة الرجاء وحسن الظن بالله تعالى، قالت: وأحزني ذلك فنمت فرأيت لعثمان عين تجري، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: ذلك عمله، ولما توفي عثمان هذا قبل رسول الله ﷺ خذّه وبكى حتى سالت دموعه الكريمة على خد عثمان وبكى القوم، فقال رسول الله ﷺ: «اذهب عنها أي الدنيا أبا السائب لقد خرجت عنها ولم تتلبس منها بشيء» وسماه ﷺ السلف الصالح، وهو أول من قبر بالبقيع ﷺ.

فتأمل زجره ﷺ عن الجزم بالشهادة على الله في عثمان هذا مع كونه شهد بداراً وقوله: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، وقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وكونه قبله وبكى ووصفه له بأعظم الأوصاف وأفضلها، وهو أنه لم

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 23

يتلبس من الدنيا بشيء، وبأنه السلف الصالح تعلم أنه ينبغي لك وإن عملت من الطاعات ما عملت أن تكون على حيز من الخوف والخشية من الله تعالى وعذابه وأليم عقابه، فإنه لا يجب عليه لأحد من خلقه شيء، ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ المائدة، ونظير إنكاره ﷺ هذا على هذه المرأة إنكاره على عائشة رضي الله عنها، فقد أخرج مسلم أنها قالت: دُعي النبي ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار، فقالت: يا رسول الله طوبى لهذا: عصفور من عصافير الجنة لم يدرك الشر ولم يعلمه، قال: أو غير ذلك يا عائشة إن الله ﷻ خلق للجنة أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وفي رواية «خلقهم لها» وقد أخذ بعض الناس من هذا الحديث أن أطفال المؤمنين لا يقطع بدخولهم الجنة، واشتد إنكار العلماء عليه في هذه المقالة الشيعة المخالفة لقواطع الآيات والأحاديث وتزيفهم وتعليطها لقائلها، ولا متمسك في هذا الحديث لأن ظاهره غير مراد إجماعاً، وإنما ذلك قبل أن يعلم الله تعالى نبيّه بأنه يقطع لهم بالجنة، فحينئذ كان لا ينبغي الجزم فأنكر عليها من حيث الجزم، وأما بعد ذلك بحسب ما شهدت من النصوص القطعية لا إنكار على من جزم بذلك، وإنما الخلاف في أطفال الكفار، والأصح منه أنهم في الجنة أيضاً، وربما يأتي لنا عودة إلى ذلك، وكيف يخاف المؤمنون كلهم ورسول الله ﷺ يقول: «شيبني هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعم يتسائلون وإذ الشمس كورت والغاشية».

قال العلماء: لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع والوعيد الشديد باعتبار اشتمالهن من قصرهن على حكاية أحوال الآخرة وعجائبها وفضائنها، وأحوال الهالكين والمعذبين مع ما اشتملت عليه هود من الأمر بالاستقامة كما أمر، وهذا من أصعب المقامات لا يتأهل للقيام به إلا هو ﷺ وهو كمقام الشكر إذ هو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه من حواسه الظاهرة والباطنة إلى ما خلق لأجله من عبادة ربه وطاعته بما يناسب كل جارحة من

24 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

جوارحه على الوجه الأكمل، ولذا لما قيل له ﷺ على مجاهدته لنفسه وكثرة بكائه وخوفه وتضرعه: «أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟» ومن العجب أن قوله تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ طه، ربما فهم منه بعض من لا تأمل له أن فيه رجاء عظيمًا، وأي رجاء عظيم فيه مع كونه تعالى شرط للمبالغة في مغفرته أربعة شروط: التوبة والإيمان الكامل المراد في نحو قوله ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، والعمل الصالح، ثم سلوك سبيل المهتدين من مراقبة الله تعالى وشهوده، وإدامة الذكر والفكر والإقبال بالخلق على الله تعالى بمقاله وحاله ودعائه وإخلاصه.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ القصص، ولا تغتر بما قيل (عسى) من الله واجبة الوقوع فإن ذلك أكثرني لا كلي، قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ طه، وفرعون لعنه الله لم يتذكر ولم يخشى تذكرًا وخشية نافعين له، بل نبهه الله تعالى على أنه إذا تبت توبة نصوحاً وآمنت إيماناً كاملاً وعملت صالحاً كنت على رجاء حصول الفلاح لك والهدية والقرب من حضرة الحق فأياك أن تأمن مكر الله فإن وصلت إلى ما وصلت ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف، واستحضر قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُنَّ خَالِصَاتٍ وَلَئِن سَأَلْتَهُنَّ لَيَفْخَرْنَ بِكَ وَيَكُنَّ صَدَقَاتُكَ تُضَارِبُ الصَّاعِقَ لَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ هود، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ النجم، ثم نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 25

الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا ﴿٧٦﴾ مريم، وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ﴿٧٧﴾ الفرقان، وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَٰهِي سُنَّتُهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ سبأ، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ﴿٨٠﴾ الزلزلة، وقوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ﴿٨١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفَىٰ خُسْرٍ﴾ ﴿٨٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ﴿٨٣﴾ العصر، فانظر بعين بصيرتك ونور سريرتك إلى أنه تعالى قد حكم على كل إنسان إذ آل فيه للعموم والاستغراق بدليل الاستثناء بأنه خاسر إلا من جمع أربعة أمور فإنه الذي ينجو من الخسران المادي إلى الهلاك: الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق بأن يتلبسوا بما دل عليهما الكتاب والسنة من الأخلاق والآداب والأحكام والشروط في سائر أقوالهم وأفعالهم الباطنة والظاهرة فلا يوجد منها شيء إلا وقد أخلصوا فيه وابتغوا به وجه الله وحده، والتواصي بالصبر بأن يصبروا على الطاعات وما يلقونه من المكارم والبليات، وعن المعاصي وما لها من الشهوات واللذات، فمن تحقق بهذه الشروط الأربعة كما ذكرنا كان على رجاء عظيم من السلامة من الخسار والعار والشنار والبوار ومن الوصول إلى شهود الكبير المتعال، والفوز برضاه في الحال والمآل، حقق الله لنا ذلك بمنه وكرمه، كيف يصح لعاقل أن يأمن سطوات الحق وانتقامه وقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمان: أي بين إرادته تعالى السعادة لأقوام والشقاوة لآخرين وسمي القلب قلباً لأنه أشد تقلباً من قِدر أغلى على ما فيها بأعظم الوقود ومن ثم كان ﷺ يكثر أن يقول في سجوده «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وقد قال مقلب القلوب: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ ﴿٨٤﴾ المعارج، ولولا أنه تعالى لطف بعباده العارفين والعلماء الوارثين فروح قلوبهم بروح الرجاء لا احترقت أكبادهم من نار خوفه التي سَعَرها بما أظهره من نواميس قهره وعدله التي لو انكشفت حقائقها لزهقت النفوس وتقطعت القلوب، وكان أبو الدرداء ؓ صاحب رسول الله ﷺ يحلف بالله أن من آمن السلب عند موته سلب عند موته: أي

26 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

جزاء لأمته مكر الله، وقال عبد الرحمن بن المهدي: مات سفيان الثوري، فلما اشتد به جعل يبكي فقال له رجل: يا أبا عبد الله اترك كثير الذنوب؟ فرفع رأسه وأخذ شيئاً من الأرض فقال: والله لذنوبي أهون عندي من هذا، عن أخاف أن أسلب الإيمان قبل أن أموت، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: لما احتضر أبي جليل عنده ويدي الخرقة لأشد بها لحية، فجعل يغرق ثم يفيق ويقول: لا بعد، فقلت: يا أبت ما هذا الذي قد لهجت به في هذا الوقت؟ فقال: يا بني أو ما تعلم؟ قلت: لا، قال إبليس قائم بحذائي يقول يا أحمد فتني، فأقول لا بعد حتى أموت، وكان سهل يقول: المرید يخاف أن يتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يتلى بالكفر، ويروى أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكى إلى الله تعالى الجوع والعري، فأوحى الله تعالى إليه: عبدي أما رضيت أن عصمت قلبك عن أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا، فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى قد رضيت يارب فاعصمني من الكفر، فإذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء؟ قال العلماء: ولسوء الخاتمة علامات تتقدم على الموت مثل البدعة، ويؤيد ذلك قوله ﷺ «أهل البدعة كلاب أهل النار في النار» ومثل نفاق العمل، وهو الذي أشار إليه ﷺ بقوله «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم» ولذلك اشتد خوف السلف منه حتى قال بعضهم: لو أعلم أنني بريء من النفاق كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، وقال أبو الدرداء: استعيذوا بالله من خشوع النفاق، وقيل ما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى الجسد خاشعاً والقلب فاجراً، وروى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات، وروى الشيخ المقدسي إمام الشافعية عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أوصاني حبيبي رسول الله ﷺ بأربع كلمات هم أحب إلي من الدنيا وما فيها، قال لي: يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق: يعني الدنيا، واحمل الزاد فإن السفر بعيد، وخفف الحمل فإن العقبة طويلة، وأخلص

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 27

العمل فإن الناقد بصير» وسئل سعيد بن جبير رضي الله عنه عن الخشية فقال: هي أن تخشى الله تعالى حتى تحول خشيته بينك وبين معاصيه، فهذه هي خشيته، وأما الغرة بالله: فهي أن يتمادى الرجل في المعصية ويتمنى على المغفرة، ودخل بعضهم متنزهاً فخطر في سره أن يفعل فيه معصية وقال من يراني؟ فسمع صوتاً مزعجاً، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ سورة البقرة آية ٢٠١ الملك، وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ فاطر: وهو أن يدوم على المعاصي ويتمنى المغفرة، وقال بشر للفضيل: عظمي يرحمك الله، فقال من خاف الله تعالى دله الخير على كل خير، واستأذن رجل على طاوس فخرج له شيخ فقال له أنت طاوس، قال: لا! أنا ابنه، قال: إن كنت ابنه لقد خرف أبوك فقال: إن العالم لا يخرف، ثم قال: إذا دخلت عليه فأوجز، فدخل فقال، إذا سألت فأوجز فقال: لأن أوجز لي أوجزت، فقال إني معلمك في مجلس هذا التوراة والإنجيل والقرآن، فقال لأن علمتني هذه الثلاثة لا أسألك عن شيء، فقال: خف الله مخافة حتى لا يكون عندك شيء أخوف عندك منه، وارجه رجاء أشد من خوفك إياه، وأحب للناس ما تحب لنفسك، ويؤيد قوله إن العالم لا يخرف قول عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ النحل، من قرأ القرآن: أي بحقه لا يصل لهذه الحالة، فالمراد يكون العالم لا يخرف أنه لا يصل إلى العوام من عود الكبر كالطفل في سائر أحواله بل أقبح منه، فهذا هو الذي تصان عنه العلماء بالله وفسر مجاهد قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ سورة البقرة آية ٢٠١ الرحمان: فقال: هو الذي يهيم بالمعصية فيذكر الله تعالى فيدعها ويتركها خوفاً وحياءً من الله تعالى.

وروي أن شاباً تقياً عابداً ملازماً للمسجد في زمن عمر أحبته امرأة فدعته إلى نفسها حتى اختلى بها ثم ذكر وقوفه بين يدي ربه فخر مغشياً فأخرجته وألقته على بابها فجاء أبوه وحمله إلى بيته فاصفر وارتعذ حتى مات فجهاز ودفن فوقف عمر على شفير قبره وقرأ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ سورة البقرة آية ٢٠١ فنودي من قبره

28 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

إن الله قد أعطانيهما يا عمر وأعطاني الرضا.

وعن يحيى بن معاذ قال: من أعظم الاغترار أن المذنب يرجو العفو من غير ندامة، ويتوقع القرب من الله بغير طاعة، ويبتظر الجزاء بلا عمل ويتمنى على الله مع الإفراط وأعظم حامل على خوف الله تعالى وخشية سطوته العلم، قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمْتُوهُ ﴾ فاطر، ومن ثم غلب الخوف على علماء الصحابة ومن بعدهم حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: ليتني كنت شعرة في صدر مؤمن، وقال عمر عند موته: الويل لعمر إن لم يغفر له، وقال ابن مسعود: ليتني إذا مت لا أبعث وقد يستشكل هذا التمني بما مر في المكفرات إلا أن يجاب بأنه لم يرد حقيقة التمني، بل إظهار أن له قبائح يخاف من المؤاخذه بها بعد البحث.

ونظير ذلك ما وقع لأسامة حب رسول الله وابن حبه حيث قتل من نطق بالشهادتين ظناً أنه نطق بهما اتقاء لا حقيقة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فعاتبه وكرر عليه قوله: «هلا شققت عن قلبه» قال أسامة حتى تمنيت أنني لم أكن أسلمت يومئذ فإنه لم يتمنى الكفر ولا تأخر إسلامه حقيقة إلى بعد هذه الواقعة، وإنما تمنى سبق هذه الفعلة منه لإسلامه حتى يكفرها الإسلام فتأمل ذلك، قيل: ولما بعد العلم عن أقوام لاحظوا أعمالهم واتفق لبعضهم من الألفاظ ما يشبه الكرامات انبسطوا بالدعوى، ولم يتبعوا طريق السلف الصالح في ترك الدعوى رأساً حتى نقل عن بعضهم، أنه قال: وددت أن قد قامت القيامة حتى أنصب خيمتي على جهنم، فسأله رجل: ولم ذلك؟ فقال: إني أعلم أن جهنم إذا رأني تخمد فأكون رحمة للخلق، وهذا من أقبح الكلام وأفحشه لأنه يتضمن تحقير ما عظم الله شأنه من أمر النار، فإنه تعالى بالغ في وصفها فقال: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ البقرة وقال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ الفرقان، وفي الحديث الصحيح عن مسلم وغيره: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزء من جهنم قالوا والله إن كانت نارنا لكفاية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت عليها

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 29

بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها» وفي الحديث الصحيح أيضاً: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» ولقد وقع لبعض الصالحين أنه كان جالساً وعنده سراج فخطرت له معصية فقال لنفسه: أنا أجعل أصبعي في الفتيلة فإن صبرت عليها أطعتك في هذه المعصية، ثم أدخل إصبعه في النار فصاح صيحة مزعجة فقال: يا عدوة الله إذا لم تصبري على نار الدنيا هذه التي طفئت سبعين مرة فكيف تصبرين على نار جهنم؟ وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لكعب الأحبار: خوفنا يا كعب، فقال: يا أمير المؤمنين لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبياً لازدريت عملك مما ترى، فأطرق عمر ملياً ثم أفاق فقال: زدنا يا كعب، قال: يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها، فأطرق عمر ملياً، ثم أفاق فقال: زدنا يا كعب، قال: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر يوم القيامة زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر جاثياً على ركبتيه ويقول: رب نفسي نفسي لا أسألك اليوم غير نفسي، وقال كعب الأحبار أيضاً: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ونزلت الملائكة فصارت صفوفاً فيقول يا جبريل اتنني بجهنم فيأتي بها جبريل تقاد بسبعين ألف زمام حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق زفرت ثانية لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه، ثم تزفر الثالثة فتبلغ القلوب الحناجر وتفرغ العقول فيفرغ كل امرئ إلى عمله، حتى أن إبراهيم الخليل يقول: بخلتي لا أسألك إلا نفسي ويقول موسى: بمناجاتي لا أسألك إلا نفسي، وإن عيسى ليقول: بما أكرمتني لا أسألك إلا نفسي لا أسألك مريم التي ولدتنني.

وفي حديث أنه ﷺ قال: «يا جبريل ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكاً؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار وما جفت لي عين منذ خلقت جهنم مخافة أن أعصي الله ﷻ فيجعلني فيها» وبكى عبد الله بن رواحة يوماً فقيل له ما يبكيك قال: أنبأني الله أنني وارد النار ولم ينبئني أنني خارج منها؛

30 القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي

فلإذا كانت هذه حالة الملائكة والأنبياء والصحابة وهم المطهرون من الأذناس وهذا انزعاجهم من النار فكيف هانت على ذلك المدعي المغرور وسولت له نفسه أن خيمته تطفئ جهنم وأنه يقطع لنفسه فضلاً عن غيره بالنجاة وهي ليست إلا للعشرة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة، ومع ذلك كان عندهم من الخوف ما اقتضى أن يقول الصديق وهو أكبرهم: ليتني كنت شعرة في صدر مؤمن وأن يقول عمر: الويل لعمر إن لم يغفر له، وفي حديث «من قال إني في الجنة فهو في النار» ولسنا نعني بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل وإنما نريد خوفاً يسكن القلب حتى يمنع صاحبه عن المعاصي ويحثه على ملازمة الطاعة، فهذا هو الخوف النافع لا خوف الحمقى الذين إذا سمعوا ما يقتضي الخوف مما مر وغيره لم يزدوا على أن يقولوا ربي سلِّمْ نعوذ بالله وهم مع ذلك مصرون على القبائح والشیطان يسخر بهم كما تسخر أنت بمن رأيتَه وقد قصده سبع ضار وهو إلى جانب حصن منيع بابه مفتوح له فلم يفرغ إليه وإنما اقتصر على: ربي سلِّمْ مسلم حتى جاءه السبع فأكله روى البخاري في صحيحه أنه ﷺ قال: «كان رجل مسرف على نفسه فلما حضرته الوفاة قال لبيته إذا أنا مت فحرِّقوني واطحنوني ثم ذروني في الريح فوالله لئن قدر الله علي - أي لئن أراد تعذيبني والتعبير بالقدره عن الإرادة سائغ - ليعذبني عذاب ما عذبه أحداً فلما مات فعل به ذلك فأمر الله الأرض فقال اجمعي ما فيك منه ففعلت فإذا هو قائم قال ما حملك على ما صنعت؟ قال يارب خشيتك فغفر له» «وفي رواية مخافتك» وفي صحيح البخاري أيضاً قال عقبة لحذيفة: ألا تحدثنا بما سمعته عن النبي ﷺ؟ قال: سمعته يقول: «إن رجلاً حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً ثم اوقدوا ناراً حتى إذا أكلت وصلحت إلى عظمي فخذوه واطحنوه فذروني في يوم برائح فجمعه الله تعالى فقال لم فعلت؟ قال خشيتك فغفر

القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء والحزن والمآسي 31

له» وقال: وأنا سمعته يقول وفيه أيضاً: «إن رجلاً كان قبلهم أعطاه الله مالا فقال لبنيه لما حضرته الوفاة: أيُّ أب كنت لكم؟ قالوا خير أب: قال فإنني لم أعمل خيراً قط، فإذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في يوم عاصف ففعلوا فجمعهم الله تعالى فقال: ما حملك على ذلك؟ قال مخافتك فتلقاه برحمته».

شؤم المعاصي

لولا عبادُ للإله ركع وصيبة من اليتامى رضع
ومهملات في الفلاة رتع صب عليكم العذاب الموجه
قال الله تعالى: ﴿ وَذُرُوا ظَهَرَ الْآثَمِ وَبَاطِنُهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يُكْسِبُونَ الْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام].

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله فرض
فرائض فلا تضيعوها، وحدّ وحدوداً فلا تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت
عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» رواه الدارقطني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق المحارم تكن
أعبد الناس، وارضى بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن
مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة
الضحك تميّت القلب» رواه الترمذي.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خصال خمس أعوذ
بالله أن تدركوها: لم تظهر الفاحشة في قوم إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في
أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور
السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم
يمطروا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدواً من غيرهم
فيأخذ بعض ما في أيديهم، ومن لم يحكم أثمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم»
رواه ابن ماجه والبيهقي والبخاري.

إن للمعاصي من الآثار القبيحة بمقدار ما للتقوى من الأوصاف الحسنة

فكما أنه لا خير في الدنيا والآخرة إلا وسببه التقوى فكذلك ليس في الدنيا والآخرة شر ولا بلاء ولا محنة إلا سببه المعاصي، فهي سبب كل فساد في البر والبحر من هلاك الأديان، والأبدان، والأمراض والأسقام، وفساد الزروع والثمار، والقحط والخوف والغرق في البحر، وهلاك الأموال والأنفس وغير ذلك، قال الله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ الروم.

وهي سبب زوال النعم وحلول النقم، والندم حيث لا ينفع الندم، قال الله تعالى:

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ ﴿١٣٢﴾ الرعد.

وهي سبب زوال الإيمان واللعنة وغضب الرحمان، والذل والمسكنة والهوان قال الله تعالى:

﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنْ اللَّهِ﴾ البقرة. ثم قال:

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ البقرة. وهي سبب لعن أهل الكتاب وامتحانهم بما أخبر الله تعالى به عنهم مرة بالقتل والسبي وجور المملوك

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وأخرى بخراب الديار ونهب الأموال، كما قال الله تعالى:

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ الإسراء. وتارة بمسخهم قردة وخنازير، كما قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ الأعراف. بل هي سبب هلاك الأمم الماضية والقرون الخالية لقوله تعالى:

﴿أَخَذْنَا بَذَنِيهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا

أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ العنكبوت.

ثم حذرنا الله أن يحل بنا ما حل بهم بقوله تعالى: ﴿ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦١﴾ الحديد.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ هود. ويقول تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور. ويقول تعالى: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَىٰ لُغْفَارٍ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَىٰ ﴿١٦٣﴾ طه.

عظمت مصيبة من عصي مولاه	وخلا بذاك الذنب وهو يراه
كيف استقر قراره لما عصي	أم كيف لا تجرى دما عيناه
يا مذنباً لم تجري منه دموعه	أسفا على ما كان من بلواه
إني أظنك مبتلى بقساوة	يا من يقل دموعه وبكاه

وخلاصة هذا: أنك لن تكون عبداً حقيقياً لله تعالى إلا إذا اجتنبت محارمه، وهي: المعاصي والمنهيات، وترك المأمورات ومعنى هذا: أنه إذا كان الله تعالى قد أمرك في كتابه العزيز وعلى لسان حبيبه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، بفعل شيء أو تركه فإنه يحرم عليك عدم الاستجابة لأوامره، وفعل ما نهى عنه وإلا كنت من العصاة المذنبين ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ ﴿١٦٤﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٦٥﴾ الكهف.

وحتى لا تكون من الأخسرين أقدم لك هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي ستقف فيها على أهم الأوامر والنواهي التي يجب عليك، كعبد من عباد الله أن تعرفها وتقف على أبعادها وأسرارها حتى يتسنى لك تنفيذها وتنفيذ جميع الأوامر، ومجتنباً لجميع المنهيات.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ۚ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ۝ الأنعام.

ويقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ۝ النحل.

كما يقول صلوات الله وسلامه عليه: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المومنات» رواه البخاري ومسلم.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، ثلاثا: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، ألا وشهادة الزور، وقول الزور، وكان متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» رواه البخاري ومسلم.

ويقول: «العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه» رواه مسلم.

ويقول ﷺ: «لا يخلو أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم» رواه البخاري ومسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور

مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» رواه البخاري ومسلم.

يجب على كل مسلم يرجو البراءة لدينه وعرضه أن يتبعد عن كل شيء فيه شبهة، لأنه إذا لم يتبعد عن الشبهة وقع في الحرام أو قارب الوقوع فيه وقد نهى القرآن عن المقاربة فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۗ ﴾ البقرة. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم».

ورحم الله الإمام علي إذ كان يقول: «إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره، فرب سامع نكراً، لا تستطيع أن تسمعه عذراً». إذا «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» رواه الترمذي والنسائي، وإياك أن تحقر ذنباً مهما كان صغيراً.

فمعظم النار من مستصغر الشرر

وفي الحديث النبوي الشريف: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» رواه أحمد والطبراني والبيهقي.

وقال عليه الصلاة والسلام: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب فان لها من الله طالباً» رواه النسائي.

قال الإمام ابن حجر الهيتمي: ⁽¹⁾ اعلم إن جماعة من الأئمة أنكروا أن في الذنوب صغيرة وقالوا بل سائر المعاصي كبائر، منهم الأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني، والقاضي أبوبكر الباقلاني، وإمام الحرمين في (الإرشاد) وابن القشيري

(1) أخذنا هذا الموضوع لإتمام الفائدة من كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر للإمام ابن حجر الهيتمي رحمه الله.

في (المرشد) بل حكاه ابن فورك عن الأشاعرة واختاره في تفسيره فقال: معاصي الله تعالى عندنا كلها كبائر، وإنما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، ثم أول الآية الآتية: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ النساء، بما ينبو عنه ظاهرها. وقالت المعتزلة: الذنوب على ضربين صغائر وكبائر، وهذا ليس بصحيح، انتهى.

وربما ادعى في موضع اتفاق الأصحاب على ما ذكره واعتمد ذلك أيضاً التقي السبكي. وقال القاضي عبد الوهاب: لا يمكن أن يقال في معصية إنها صغيرة إلا على معنى أنها تصغر باجتناب الكبائر. ويوافق هذا القول ما رواه الطبراني عن ابن عباس، لكنه منقطع أنه ذكر عنده الكبائر، فقال: كل ما نهى عنه فهو كبيرة، وفي رواية عنه: كل شيء عصي الله فيه فهو كبيرة وقال جمهور العلماء: إن المعاصي تنقسم إلى صغائر وكبائر، ولا خلاف بين الفريقين في المعنى، وإنما الخلاف في التسمية والإطلاق لإجماع الكل على أن معنى المعاصي ما يقدح في العدالة ومنها ما لا يقدح فيها، وإنما الأولون فرو من هذه التسمية فكهو تسمية معصية الله تعالى صغيرة نظراً إلى عظمة الله تعالى وشدة عقابه وإجلالاً له عز وجل عن تسمية معصيته صغيرة، لأنها بالنظر إلى باهر عظمتها كبيرة أي كبيرة، ولم ينظر الجمهور إلى ذلك لأنه معلوم، بل قسموها إلى صغائر وكبائر لقوله تعالى: ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ الحجرات. فجعلها رتبا ثلاثاً، وسمي بعض المعاصي فسوقاً دون بعض، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ النجم. وسيأتي في الحديث الصحيح (الكبائر السبع) وفي رواية (تسع) وفي الحديث الصحيح أيضاً: «ومن كذا إلى كذا كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر» فخص الكبائر ببعض الذنوب، ولو كانت الذنوب كلها كبائر لم يسع ذلك، ولأن ما عظمت مفسدته أحق باسم الكبيرة، على أن قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ النساء، صريح في انقسام الذنوب إلى كبائر

وصغائر، ولذلك قال الغزالي: لا يليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر، وقد عرفنا من مدارك الشرع، ثم القائلون بالفرق بين الكبيرة والصغيرة اختلفوا في حد الكبيرة، ولأصحابنا في حدها وجوه:

أحدها: أنها ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد بنص كتاب أو سنة. هذه عبارة الروضة وأصلها وغيرهما، وحذف بعض المتأخرين تقييد الوعيد بكونه شديداً، وكأنه نظر إلى أن كل وعيد من الله تعالى لا يكون إلا شديداً فهو من الوصف اللازم. وخرج بالخصوص ما اندرج تحت عموم فلا يكفي ذلك في كونه كبيرة بخصوصه، قيل: ولكون الوعيد لا يكون إلا في الكتاب أو السنة لم يحتج إلى التصريح بذلك في الحد، انتهى وليس كذلك لأن قولهم بنص كتاب أو سنة مصرح بذلك.

ثانيها: أنها كل معصية أوجبت الحد، وبه قال البغوي وغيره، وقال الرافعي: هذان الوجهان أكثر ما يوجد لهم وهم إلى ترجيح هذا أميل، ولكن الأول أوفق بما ذكروه في تفصيل الكبائر: أي لأنهم نصوا على كبائر كثيرة ولا حد فيها كآكل الربا ومال اليتيم والعقوق وقطع الرحم والسحر والنميمة وشهادة الزور والسعاية والقوادة والديانة وغيرها.

وبهذا يعلم أن الحد الأول أصح من الحد الثاني، وإن قال الرافعي إنهم إلى ترجيحه أميل، وأخذ منه صاحب الحاوي الصغير وغيره أنه الراجح فجزم به، ثم رأيت الأذرع صرح بما ذكرته فقال: عجيب قول الشيخين إن الأصحاب إلى الثاني أميل وهو في غاية البعد. انتهى.

لكن إذا أول على أن مراد قائله ماعدا المنصوص عليه وإن لم يكن فيه حد خف بعده واندفع الإيراد عليه بأن في الصحيحين تسمية العقوق وشهادة الزور كبيرتين مع أنه لا حد فيهما على أنه يرد على الأول أيضاً بعض ما يأتي مما علم أنه كبيرة ولم يرد فيه وعيد شديد، وسيأتي عن ابن عبد السلام ذكر أنواع من الكبائر اتفاقاً مع أنه لم يرد فيها نص بذلك.

ثالثها: أنها كل ما نص الكتاب على تحريمه أو جبه في جنسه حداً وترك فريضة تجب فوراً، والكذب في الشهادة والرواية واليمين، زاد الهروي في إشراقه، وشريح في روضته: وكل قول خالف الإجماع العام.

رابعها: قال الإمام وغيره: كل جريمة على ما نقله الرافي، وعبرة إرشاده جريمة وهي بمعناها تؤذن: أي تعلم بقلة الاكتراث: اعتناء مرتكبها بالدين، ورقة الديانة مبطله للعدالة، وكل جريمة أو جريمة لا تؤذن بذلك بل يبقى حسن الظن ظاهراً بصاحبها لا تحيط العدالة، قال: وهذا أحسن ما يميز به أحد الضدين عن الآخر، انتهى. ولهذا تابعه ابن القشيري في المرشد واختاره الإمام السبكي وغيره، وفي معناه قوله في نهايته الصادرة من الشخص إن دل على الاستهانة لا بالدين ولكن بغلبة التقوى وتمرين غلبة رجاء العفو فهو كبيرة، وإن صدر عن فلتة خاطر أو لفظة ناظر فصغيرة، ومعنى قوله: لا بالدين: أي لا بأصله فإن الاستهانة بأصله كفر، ومن ثم عبر في الأول بقلة الاكتراث ولم يقل بعدم الاكتراث، والكفر وإن كان أكبر الكبائر فالمراد تفسير غيره مما يصدر من مسلم. قال البرماوي: ورجح المتأخرون مقالة الإمام الحسن، الضبط بها ولعلها وافية بما ورد في السنة من تفصيل الكبائر الآتي بيانها وما ألحق بها قياساً، انتهى. وكأنه لم ير منازعة الأذري فيما قاله الإمام، فإنه قال: وإذا تأملت بعض ما عد من الصغائر توقفت فيها إطلاقاً. انتهى، وكأنه أخذ ذلك من اعتراض ابن أبي الدم، ضابط النهاية بأنه مدخول وبينه بما بسطه عنه في الخادم، على أنك إذا تأملت كلام الإمام الأول ظهر لك أنه لم يجعل ذلك حداً للكبيرة خلافاً لمن فهم منه ذلك، لأنه يشمل صغائر الخسة وليست بكبائر، وإنما ضبطه به ما يبطل العدالة من المعاصي الشامل للصغائر الخسة، نعم هذا الحد أشمل من التعريفين الأولين لصدقه على سائر مفردات الكبائر الآتية، ولكنه غير مانع لما علمت أنه يشمل صغائر الخسة ونحوها كالإصرار على الصغائر، ولما نقل البرماوي عن الرافع الأوجه السابقة قال: قال بعض المحققين: ينبغي أن تجمع هذه التعاريف كلها ليحصل استيعاب الكبائر المنصوصة والمقيسة لأن بعضها لا يصدق

عليه هذا وبعضها لا يصدق عليه الآخر.

قلت: لكن تعريف الإمام لا يكاد يخرج عنه شيء منها لمن تأمله. انتهى، وقال في الخادم بعد إيراده ما مر عن الرافي: التحقيق أن كل واحد من هذه الأوجه اقتصر على بعض أنواع الكبيرة، وأن مجموع هذه الأوجه يحصل به ضابط الكبيرة انتهى، ولهذا قال الماوردي: الكبيرة: ما أوجب الحد أو توجه إليه الوعيد. وقال ابن عطية: كل ما وجب فيه حد أو ورد فيه توعّد بالنار أو جاءت فيه لعنة، وسيأتي نحو ذلك عن ابن الصلاح وغيره. واعترض قول الإمام كل جريمة لا تؤذن بذلك. إذ بان من أقدم على غضب ما دون نصاب السرقة أتى بصغيرة، ولا يحسن في نفوس الناس الظن فكان القياس أن يكون كبيرة، وكذلك قبله الأجنبية صغيرة، ولا يحسن في نفوس الناس الظن بفاعلهما. ويجب بأن كون هذين صغيرتين، إنما هو على قول جمع كما يأتي فيهما، وأما على مقابلة الآتي أنهما كبيرتان فلا اعتراض، وإنما يحسن أن لو اتفقوا على أنها صغيرة وأنها مما يسوء ظن أكثر الناس بفاعلهما.

خامسها: أنها ما أوجب الحد أو توجه إليه الوعيد، والصغيرة ما قل فيه الإثم ذكره الماوردي في حاوية

سادسها: أنها كل محرم لعينه منهي عنه لمعنى في نفسه، فإن فعله على وجه يجمع وجهين أو وجوهاً من التحريم كان فاحشة، فالزنا كبيرة، وبحليلة الجار فاحشة، والصغيرة تعاطي ما تنقص رتبته عن رتبة المنصوص عليه أو تعاطيه على وجه دون المنصوص عليه، فإن تعاطاه على وجه يجمع وجهين أو وجوهاً من التحريم كان كبيرة، فالقبله واللمس والمفاخضة صغيرة ومع حليلة الجار كبيرة، كذا نقله ابن الرفعة وغيره عن القاضي حسين عن الحلبي، وسيأتي بسط عبارته في محلها وأنه اختار أنه ما من ذنب إلا وفيه صغيرة وكبيرة وقد تنقلت الصغيرة كبيرة بقرينة تضم إليها وتنقلب الكبيرة فاحشة بقرينة تضم إليها إلا الكفر بالله تعالى فإنه أفحش الكبائر وليس من نوعه صغيرة، ثم مثل لذلك بأمثلة تأت في محلها مع الكلام عليها.

سابعها: أنها كل فعل نص الكتاب على تحريمه: أي بلفظ التحريم وهو أربعة أشياء: أكل لحم الميتة والخنزير، ومال اليتيم ونحوه، والفرار من الزحف، ورد بمنع الحصر في الأربعة.

ثامنها: أنه لا حد لها بحصرها يعرفه العباد واعتمده الواحدي من أصحابنا في بسطة فقال: الصحيح إن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به، وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها، ولكن الله عز وجل أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا في اجتناب المنهي عنه رجاء أن تجتنب الكبائر، ونظائره إخفاء الصلاة الوسطى وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك. انتهى، وليس كما قال. بل الصحيح أن لها حداً معلوماً كما مر، ثم رأيت بعضهم نقل عنه هذه المقالة، لكن على وجه يخف به الاعتراض عليه، فقال: قال الواحدي المفسر الشافعي وغيره: الكبائر كلها لا تعرف: أي لا تنحصر، قالوا: لأنه ورد وصف أنواع من المعاصي بأنها كبائر، وأنواع أنها صغائر، وأنواع لم توصف بشيء منهما، وقال الاكثرون: إنها معروفة. واختلفوا هل تعرف بحد وضابط أو بالعد؟ انتهى، وقد ذكر ابن حجر كلام للمتأخرين لم نذكره هنا خشية الإطالة والله يهدي السبيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ومثله في حاشية ابن حمدون على ميارة، في باب التصرف فراجعه إن شئت.

مكايد ومداخل الشيطان

قال صاحب هدية الألباب:

ولا تكن وحشاً مسيئاً ضاري تكره في السر وفي الجهار
ولا تكن فظاً غليظ القلب مستقلاً لدى نفوس الصحب
ولا تكن سخرية مهذارا ولا أخا كذب ولا مكثارا
ولا سفيهاً باسط اللسان بالشتم والإيذاء للإخوان
وجانب النميمة الرذيله والغيبة المذهبة الفضيله
وكن نظيف الجسم والثياب معتدل الطعام والشراب
وامش الهويينا مشية الوقار بلا التفات موجب الإنكار
قال تعالى حكاية عن إبليس اللعين: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ هُمْ صِرَاطَكَ
الْمُسْتَقِيمَ ۖ ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا يَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ الأعراف.

قال جمهور المفسرين والنحاة: بحذف (على) فانتصب الفعل، والتقدير:
لأقعدن لهم على صراطك، والظاهر: أن الفعل مضمّر، فإن القاعد على الشيء
ملازم له، فكأنه قال: لألزمه، ولأرصده، ولأعوجه، ونحو ذلك^(١).
قال ابن عباس: «دينك الواضح» وقال ابن مسعود: «هو كتاب الله» وقال
جابر: «هو الإسلام» وقال مجاهد: «هو الحق».

والجميع عبارة عن معنى واحد، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى كما
في الحديث: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه كلها» رواه أحمد والنسائي.

(١) راجع كتاب الوسواس الخناس للإمام ابن القيم.

فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس: «من قبل الدنيا» وفي رواية: «أشككهم في آخرتهم» وقال الحسن: «من قبل الآخرة، تكذيباً بالبعث والجنة والنار» وقال مجاهد: «من بين أيديهم، من حيث يبصرون».

(ومن خلفهم) قال ابن عباس: - أرغبهم في دنياهم - وقال الحسن - من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها لهم - وقال أبو صالح - أشككهم في الآخرة وأبعداها عليهم - وقال مجاهد - من حيث لا يبصرون - .

(وعن أيمانهم) قال ابن عباس: أشبه عليهم أمرد بينهم، وقال: أبو صالح، الحق أشككم فيه، وعن ابن عباس، من قبل حسناتهم.

قال الحسن: (وعن شمائلهم) السيئات يأمرهم ويحثهم عليها ويزينها في أعينهم.

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ولم يقل من فوقهم لأنه علم أن الله من فوقهم».

قال الشعبي: فالله ﷻ أنزل الرحمة عليهم من فوقهم.

وقال قتادة: أذاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.

قال الزمخشري: - ثم لا تبينهم من الجهات الأربعة التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه، كقوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ .

قال شقيق: «ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ ﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ﴿٢٨٦﴾ وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه، فأقرأ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾

ومن قبل يميني، يأتي من قبل النساء، فأقرأ ﴿وَالْعَصْفَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومن قبل شمالي فيأتي من قبل الشهوات فأقرأ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

قال ابن قيم⁽¹⁾ الجوزية رحمه الله: السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأى سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رسداً له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبته عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها بمعصية وجده عليها حاملاً له وخادماً ومعيناً وممنياً، ولو اتفق له الهبوط إلى الأسفل لآتاه من هناك.

وقال أيضاً: فقول عدو الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يتناول الدنيا والآخرة، وقوله ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ فإن ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبته عنه، وأن ملك السيئات عن الشمال ينهيه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرضه، وهذا بفضل ما أجمله في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال تعالى ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ ١٧٧ ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا اتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ ١٧٨ ﴿وَلَا ضَلُّهُمْ وَلَا مَنِيتُهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ ؕ إِذَا رَأَى الْآتِغَمِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ ١٧٩ ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ١٨٠. قال الضحاك «مفروضاً أي معلوماً» وقال الزجاج: «أي نصيب افترضه على نفسي، قال الفراء: يعني ما جعل له عليه السبيل من الناس، فهو كالمفروض».

قلت⁽²⁾: حقيقة الفرض هو التقدير، والمعنى: أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه،

(1) في كتاب الوسواس الخناس.

(2) القائل هو ابن القيم رحمه الله مع بعض النقص في كلامه.

فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله وحزبه، وخاصته.

وقوله: ﴿وَلَا ضَلَّئُهُمْ﴾ يعني عن الحق ﴿وَلَا مُنِيئُهُمْ﴾ قال ابن عباس: يريد

تعويق التوبة وتأخيرها.

وقال الكلبي: أمنيهم، أنه لا جنة، ولا نار ولا بعث، وقال الزجاج: أجمع لهم من الإضلال أن أومهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة كما تزعم اليهود والنصارى

وقوله: ﴿وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبَيِّنْ كُنْ إِذَا رَأَى الْآتَعْمِرِ﴾ - البتك - القطع وهو في

هذا الموضع: قطع آذان البحيرة، عند جميع المفسرين، ومن ههنا كره جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل، ورخص في ذلك للأئمة، دون الذكر، لحاجتها للحلية.

وقوله: ﴿وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يريد دين الله، وهو

قول إبراهيم، ومجاهد، والحسن، والضحاك، وقتادة، والسدي، وسعيد بن المسيب،

وسعيد بن جبير، ومعنى ذلك: هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة

وهي ملة الإسلام، كما قال تعالى ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ

النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٢١٣﴾ * مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَأَتَّقُوهُ ﴾ ولهذا قال ﷺ «ما من مولود إلا ويولد على

الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، فهل

تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها» ثم قرأ أبو هريرة «فطرة الله

التي فطر الناس عليها» متفق عليه.

فجمع عليه الصلاة والسلام بين أمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير،

وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بد أن يغيرهما، فغير

فطرة الله بالكفر، وهو تغير الخلقة التي خلقوا عليها، وغير الصور بالبتك، فغير

الفطرة إلى الشرك وغير الخلقة إلى البتك والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا

تغيير خلقة الصورة.

ثم قال: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ﴾ فوعده: ما يصل إلى قلب الإنسان نحو سيطول عمره، وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك وتظفر بأعدائك، والدنيا دول ستكون لك كما كانت لغيرك ويطول أمله، ويعده بالحسنى على شركه ومعاصيه، ويمنيه الأمانى الكاذبة، على اختلاف وجوهها، والفرق بين وعده وتمنيه أنه يعد بالباطل، ويمنى بالمحال، والنفس المهيئة التي لا قدرة لها تغتذى بوعده وتمنيته، كما قال القائل:

منى ان تكون حقا تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا
فالنفس المبطله الخسيه تلتذ بالأمانى الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها، فالأقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته، فإن الشيطان يمى أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويعدهم الوصول إليه من غير طريقة، فكل مبطل له نصيب من قوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ قيل: (يعدكم الفقر، يخوفكم به) يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ قالو: هي البخل في هذا الموضوع خاصة، ويذكر عن مقاتل والكلبي (كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضوع فإنها البخل).

قال ابن القيم: والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للمعلوم: أي بالفعل الفحشاء والخلة الفحشاء، ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره: يأمرهم بالشر ويخوفهم بالشر من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان، فإنه إذا خوفه من فعل الخير تركه، وإن أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها، وسمى سبحانه تخويف وعد الانتظار الذي خوفه إياه كما ينتظر الموعود ما

وعد له، ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامثاله أوامره واجتناب نواهيه، وهي: المغفرة والفضل، فالمغفرة: وقاية الشر، والفضل: إعطاء الخير، وفي الحديث «إن للملك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان: ابعاد بالشر، وتكذيب بالوعد، ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء».

فالمَلِكُ والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار فمن الناس من يكون ليله من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيز بالله تعالى من شر الشيطان.

يقول الله ﷻ: ﴿يَنْبِئُ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰهُمْ إِنَّهُ يَبْزُقُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾﴾ الأعراف.

مارس الشيطان كيده وفتنته مبتدئاً بالأبوين الكريمين، ولقد كان بلاء عظيماً، دافعه الغيظ والحسد ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الإسرائ، ودافعه الكبر والخيلاء: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة، ووسيلة الإيمان الكاذبة: ﴿وَقَاسَمُهُمَا إِيَّيْ لَكُمْ لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ الأعراف، والمقاييس الفاسدة: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ الأعراف.

فتنة عظمى، وبلية كبرى حين يعظم سلطان إبليس فيستفز القلوب والعقول والمشاعر في معركة صاخبة، تزمجر فيها الأصوات وفيها إجلاب الخيل والرجال للمبارزات: ﴿وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ يُخِيلُكَ وَرَجَلُكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الإسرائ.

إن تبين صور هذا الكيد الإبليسي، والتأمل في هذا المكر الشيطاني، أمراً من الأهمية بمكان من أجل النظر في سبيل الخلاص، وطريق النجاة، فالله سبحانه قد هدى العباد إلى النجدين، وأوضح لهم الطريقين.

وتترقى خطوات الشيطان التي يستدرج فيها ابن آدم حتى يتخذ معبوداً له من دون الله عياداً بالله ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يس، ﴿ يَتَأَبَّتْ لَّا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ مريم.

ويقع العبد في ذلك حين يسلم قيادته لعدوه، ويلفت الزمام لشهواته، فيتبع كل شيطان مريد ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَاتَّهَرُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلَسَّ عِيرِ ﴾ الحج، وفي الحديث: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: وتذر دينك ودين آبائك، وآباء أبيك؟» أخرجه النسائي وأحمد.

ويأتي من بعد الكفر مسالك أخرى في خطوات البدع والأهواء والشبهات فكم رُوج الزغل على بعض الغافلين، وكم سحرَ ببهرجة بعض المبتدعين حتى ألقاهم في تشعبات الآراء، ومسالك الضلال، منتقلا بهم إلى حالة يقولون فيها على الله ما لا يعلمون ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة.

فالقول على الله بلا علم خطوة من خطوات الشيطان، وهو الأصل في فساد العقائد، وتحريف الشرائع، ويخشى من ذلك على أقوام يخوضون في علوم لا يحسنونها ويتجرءون على فتاوى لا يحيطون بها، وقد يجرحهم في خطواتهم إلى الإفك والإثم والتزوير والكذب وحينئذ تنزل عليهم الشياطين تنزلاً ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ ﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الشعراء، وحينئذ لا يدعون ولا يعملون بهدى ولا يأتَمرون بتقوى، ولا يدلون ولا يمتثلون بحق، وبريد الشيطان في ذلك الطيش والعجلة كما جاء في حديث أنس بن مالك ؓ عن النبي ﷺ قال: (التأني من الله والعجلة من الشيطان) رواه أبو يعلى، والبيهقي، وتأتي خطوات من

بعد ذلك في أهواء النفوس وطبائعها، فالبخل وخوف الفقر سلاح شيطاني، يقول فيه سفيان الثوري: ليس للشيطان سلاح للإنسان مثل خوف الفقر، فإذا وقع في قلب الإنسان منع الحق، وتكلم بالهوى وظنَّ بربه ظنَّ السوء، وأصدق من ذلك وأبلغ قول ربنا عز وتبارك: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة.

ومن التمرد الشيطاني على عقل العاقل أن يخرجته عن الجادة ويملاً صدره غضباً وغيظاً، روي عن بعض الأنبياء أنه قال لإبليس: بم غلبت ابن آدم؟ قال: عند الغضب وعند الهوى، وأغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول، فأطرق عمر برهة، ثم قال، أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان، فأنا لك منك اليوم ما تنال مني غداً!!

أما الأماني وحصائد الغرور فذلكم هو السلاح الشيطاني المضاء ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ النساء: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴿إبراهيم﴾ ﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ الأنفال، يعدهم هذا الغرار بحسب طبائعهم، يجرحهم إلى حباله بحسب ميولهم ومشترياتهم، يخوف الأغنياء بالفقر، إذا هم تصدقوا وأحسنوا، كما يزين لهم الغنى وألوان الثراء بالأسباب المحرمة والوسائل القذرة.

يزين لأصحاب الملل والنحل التعصب وتحقير المخالفين، ويصور لهم ذلك طريقاً إلى الحرص على العالم وحب أهله، وينقضي عمر ابن آدم وهو في بحر الأماني يسبح، وفي سبيل الغواية يخوض يعده الباطل، وينمي المحال، والنفس الضعيفة المهينة تغتذي بوعده، وتلتذ بأباطيله، وتفرح كما يفرح الصبيان والمعتوهون، والخروج عن الوسط ومجاوزة حد الاعتدال خطر إبليسي ومسلوك شيطاني: يقول بعض السلف: ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى

تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالى إبليس بأيهما ظفر.

وإن حباثل الشيطان بين هذين الواديين، تُحبك وتحاك، غلا قوم في الأنبياء وأتباعهم حتى عبدوهم، وقصر آخرون حتى قتلوهم، وقتلوا الذين يأمرهم بالقسط من الناس، وطوائف غلو في الشيوخ وأهل الصلاح، وآخرون جفوههم وأعرضوا عنهم، وإذا نظرت في فروع الأحكام، فإنك ستري أناساً قصرُوا بواجبات الطهارة، وتجاوز آخرون إلى الوسواس، وفتة من الناس جعلوا تحصيل العلم غايتهم، وأهملوا العمل، وآخرون تركوا فروض الأعيان المتعينة فلم يتعلموها، وأما أعمال القلوب من الخشية والانكسار والإخبات وأمثالها، فقد أهملها بعض من استحوذ عليهم الشيطان، ولم يلتفتوا إليها، وظنوها من فضول العمل، واستحوذ على آخرين في الجانب الآخر حتى أهملوا أعمال الجوارح ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ محمد، ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء ﴿وَالَهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الزخرف، إن أسوأ ما يصنعه القرين من الشيطان أن يصد قرينه عن سبيل الحق، ثم لا يدعه يفيق ولا يستبين، بل يوهمه أنه سائر على الطريق المستقيم حتى يفجأ بالمصير الأليم ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الأعراف.

قال عمر بن الخطاب ؓ إن ذرية الشيطان تسعة، زليتون، ووثين، ولقوس، وأعوان، وهفاف، ومرة، والمُسَوِّطُ، وداسم، ولهان، فأما زليتون فهو صاحب الأسواق فينصب فيها رايته، وأما وثين فهو صاحب المصيبات، وأما أعوان فهو صاحب السلطان، وأما هفاف فهو صاحب الشراب، وأما مرة فهو صاحب المزامير، وأما لقوس فهو صاحب المجوس، وأما المسوط فهو صاحب الأخبار، يلقيها في أفواه الناس ولا يجدون لها أصلاً، وأما الداسم فهو صاحب البيوت إذا دخل الرجل المنزل ولم يسلم ولم يذكر اسم الله تعالى أوقع فيما بينهما المنازعة حتى يقع الطلاق والخلع والضرب، وأما ولهان فهو يوسوس في الوضوء والصلاة والعبادات،

ذكره ابن حجر العسقلاني في الاستعداد ليوم المعاد، راجعه فإن فيه العجب العجاب لأولي الأبواب.

لقد أخذ هذا اللعين الميثاق على نفسه ليقعد لابن آدم كل طريق: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا يَنبَغِي لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ الأعراف. لئن كان هدد بذلك وتوعد، فإن كيده ضعيف ومكره يبور، إذا تسلح العبد بسلاح الإيمان والعقيدة النقية وحسن الله تعبه، وصح على ربه توكله ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿١١﴾ النحل، ليس له سلطان على أهل التوحيد والإخلاص، ولكنه ذو تسلط عظيم على من تولاه وكفر بالله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ ﴿١٢٧﴾ مريم، ولئن انطلق عدو الله ينفذ وعيده، ويستذل عبده فليس له طريق إلى عباد الله وحزب الرحمان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ الحجر، وعلى الرغم من وضوح ذلك وجلائه، فقد يزل المؤمن أو يخطئ، وقد يصيبه نزغ من الشيطان، أو يمسسه طائف منه، وقد يران على قلبه من وسواسه، لكنه سرعان ما يلوذ بربه ويلجأ إلى ذكره، ويتوب إليه من قريب، فينخس شيطانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيَاطِينِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠٦﴾ الأعراف، صلتهم بالله الوثيقة تعصمهم من أن ينساقوا مع عدو الله وعدوهم، يتخلص المؤمن بذكر الله، لجوءاً إلى ربه، واستعاذة به، من نزوات الشيطان ونزغاته ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٠٧﴾ فصلت، وفي الحديث «أعوذ بوجه الله الكريم، وكلمات التامات اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن» أخرجه مالك في الموطأ.

حق على من أراد الخير لنفسه، والسلامة لدينه ودحر شيطانه، أن ينظر بعين البصيرة لا بعين الطمع ليسلك مسالك التقوى والعلم المكين.

قال الحسن رحمه الله: إنما هما همان يجولان في القلب، هم من الله تعالى، وهم من العدو، فرحم الله عبداً وقف عندهما فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهدته وتوقاه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يأكلن أحدكم بشماله، ولا يشربن بها فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها» رواه مسلم.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية» رواه أبو داود والنسائي وعن قتادة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً، وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره وإن الشيطان لا يترأى بي» رواه البخاري.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا تشاءب أحدكم فليمسك بيده فإن الشيطان يدخل» رواه مسلم.

قال الإمام ابن القيم الجوزية في كتاب الفوائد: مداخل الشيطان: كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات: أحداها: التزيد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة وهي حظ الشيطان ومدخله إلى القلب؛ وطريق الخلاص منه الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة، فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه اللهم أعنا على ذلك.

الثانية: الغفلة، فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب للعدو فيعسر عليه أو يصعب إخراجه.

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء. اهـ

ظهر إبليس ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال يحيى: يا إبليس، ما هذه المعاليق قال: هذه الشهوات التي أصيد بهن ابن آدم، قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا والله، قال: على أن لا أملاً بطني طعام أبدا، قال إبليس: والله أن لا أنصح مسلما أبدا .

وقيل: لما ركب نوح عليه السلام السفينة رأى فيها شيخا لم يعرفه، فقال له نوح: ما أدخلك؟ قال: دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معي، وابدانهم معك، فقال له نوح عليه السلام: أخرج يا عدو الله، فقال إبليس: خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن ثلاث ولا أحدثك باثنتين، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى نوح عليه السلام: إنه لا حاجة لك إلى الثلاث، فمره يحدثك بالاثنتين، فقال: بهما أهلك الناس وهما لا يكذبان: الحسد⁽¹⁾ والحرص⁽²⁾ فقال فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيمًا. وبالحرص أبيع لآدم الجنة كلها فأصبت حاجتي منه فأخرج من الجنة.

وقيل: لقي إبليس عليه لعنة الله موسى عليه السلام، فقال: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالته، وكلمك تكليما، وأنا من خلق الله تعالى، وأذنبت ذنبا وأريد أن أتوب فأشفع لي إلى ربي ﷻ أن يتوب عليّ، فدعا موسى ربه، فقال: يا موسى، قد قضيت حاجتك، فلقي موسى إبليس، فقال: قد أمرت أن تسجد لآدم في قبره ويتاب عليك، فاستكبر وغضب، وقال: لم أسجد له حيا، أسجد له ميتا؟ ثم قال إبليس: يا موسى، أن لك حقا بما شفعت إلى ربي فأذكرني عند ثلاث حتى لا تهلك فيهن. أذكرني حين تغضب فأنا وحي في قلبك، وعيني في عينك، وأجرى منك مجرى الدم.

وأذكرني حين تلقى الزحف فاني آتي ابن آدم حين يلقي الزحف فأذكره

(1) الحسد: أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول وتكون له دونه، والغبطة، أن يتمنى أن تكون له مثلها ولا يتمنى زوالها عنه، فالأول مذموم، والثاني محمود.

(2) الحرص: شدة الإرادة والشره إلى المطلوب، وهو نوعان: حرص فاجع وحرص نافع، فالأول حرص المرء على الدنيا وهو مشغول معذب بها فلا يفرغ من محبتها، والثاني: حرصه على طاعة الله أملاً في رحمته سبحانه.

ولده، وأهله حتى يولى، وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم فاني رسولها إليك ورسولك إليها.

وقيل بينما موسى عليه السلام جالس في بعض مجالسه إذ أقبل إبليس عليه برنوس يتلون فيه ألواناً فلما دنا منه خلع البرنوس فوضعه على أتانه أي حمارته وقال له: السلام عليك يا موسى فقال له موسى عليك السلام: من أنت؟ قال: أنا إبليس، قال: فلاحياك الله، ما جاء بك؟ قال، فما الذي أصنعه الإنسان استحوذت عليه؟ قال: إذا أعجبتة نفسه، واستكثر عمله، ونسى ذنوبه.

وأحذرك ثلاثاً، لا تخلون بامرأة لا تحل لك قط، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفنته.

ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، فإنه ما عاهد الله أحد إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء به.

ولا تخرجن صدقة إلا أمضيته، فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين إخراجها، ثم ولى يقول: ياويله - ثلاثة - علم موسى ما يحذر به بني آدم

وقيل: كان عابد في بني إسرائيل من أعبد أهل زمانه، كان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت وكانت بكرأ ليس لهم أخت غيرها، فخرج البعث⁽¹⁾ على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ولا من يأمنون عليها ولا عند من يضعونها، فأجمعوا رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقة في أنفسهم فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم، فأبى ذلك وتعوذ بالله ﷻ منهم ومن أختهم، فلم يزالوا به حتى أطاعهم، فقال: أنزلوها في بيت حذاء صومعتي، فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام، قال: فتلطف له الشيطان فلم يزل به يرغبه في الخير ويعظم

(1) البعث: أي طلبوا الجهاد في سبيل الله.

عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً، فلو مشيت بطعامها حتى تعضه على باب بيتها كان أعظم لأجرك، قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعها على باب بيتها ولم يكلمها، فلبث على هذه الحالة زماناً.

ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه، لو كنت تمشي إليها بطعامها في بيتها كان أعظم لأجرك، فلم يزل به حتى مشى بالطعام حتى وضعه في بيتها فلبث على ذلك زماناً، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه، فقال: لو كنت تكلمها وتحديثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، فلم يزل به حتى حديثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته، قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فقال: لو كنت تنزل إليها فاقعد على باب صومعتك وتحديثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها، فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحديثه، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها، فلبث زماناً يتحدثان ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والثواب في ما يصنع بها، وقال: لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريباً من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها فلم يزل به حتى فعل، فلبث زماناً، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير قائلاً: لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها، ففعل فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبثا على ذلك حيناً، ثم جاءه إبليس، فقال: لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته، ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزيناها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها.

فلم يزل إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبها، فولدت له غلاماً فجاء إبليس فقال: أرايت إن جاء إخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع؟

لا آمن أن تفتضح أو يفضحوك، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها، ففعل فقال له: أتراها تكتم

إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها، قال فخذها واذبحها وادفنها مع ابنها، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها وأطبق عليها صخرة عظيمة وسوى عليهما وصعد إلى صومعته يتعبد فيها فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو، فجاءوا فسألوه عنها فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها، وقالت: كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه، فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليها وأقاموا على قبرها أياماً ثم انصرفوا إلى أهاليهم.

فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف أراهم موضع فكذبه الشيطان، وقال: لم يصدقكم أمر أختكم، إنه قد أحبل أختكم، وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه، فزعا منكم وألقاها في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً.

وأتى الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك.

ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك، فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول لأخيه: لقد رأيت الليلة عجباً فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى، فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشيء فأمضوا بنا ودعوا هذا عنكم.

فقال أصغرهم: والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه، فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم ففتحو الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبحين في الحفيرة كما قيل لهم فسألوا عنهما العابد فصدق قول إبليس فيما صنع بهما، فاستدعوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان، فقال له:

أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة التي أحبلتها وذبحتها وابنها، فإن أنت

أطعني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك وصورك، خلصتك مما أنت فيه، فكفر العابد، فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه، ففيه نزلت هذه الآية ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَهْمًا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ الحشر.

وقيل: إذا أصبح إبليس بث جنوده في الأرض فيقول: من أضل مسلماً ألبسته التاج فيقول له القائل من جنوده الشياطين: لم أزل بفلان حتى طلق امرأته، قال: يوشك أن يتزوج

ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى عقى، قال: يوشك أن يبر.

ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى زنى، قال: أنت.

ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى شرب، قال: أنت.

ويقول آخر: لم أزل بفلان حتى قتل فيقول: أنت، أنت.



لما بُعث النبي ﷺ جعل إبليس لعنه الله يرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فيجيئون إليه بصحبتهم ليس فيها شيء فيقول لهم: ما لكم لا تصيبوا منهم شيئاً فقالوا: ما صحبتنا قوماً مثل هؤلاء فقال: رويداً بهم فعسى أن تفتح لهم الدنيا، هناك تصيبون حاجتكم منهم.

فلاحظ كل هذا، وجاهد شيطانك الذي يحرص دائماً وأبداً على إغوائك مع ملاحظة قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء، واستعن عليه بالله تعالى كما جاء في قول بعض العارفين أنه قال لتلاميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: فإن عاد؟ قال: أجاهده، قال: هذا يطول، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها ومنعك من العبور ما تصنع؟ قال: أكابده وأرده جهدي، قال: هذا يطول عليك ولكن أستعن بصاحب الغنم يكف عنك.

وقال آخر: واعلم أن إبليس مع المتقي والمخلط كرجل جالس وبين يديه

طعام، فمر به كلب فقال له: اخسأ، فذهب، فمر بآخر بين يديه طعام ولحم أعطاه لم يبرح، فالأول: مثل المتقى يمر به الشيطان فيكفيه في طرده الذكر، والثاني: مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه.

ويوم القيامة يلقي الشيطان الأكبر عليه لعنة الله تعالى خطبة على منبر من نار بعد أن يأمر أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار والتي يحدثنا الله سبحانه وتعالى عنها فيقول ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۖ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي ۚ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إبراهيم.

المعاصي والذنوب وآثارهما على الفرد والمجتمع

يا آدمي أتدري ما مُنيت به أم دون ذُنُكَ ستر ليس ينجاب
يوم ويوم ونفنى العمر منظويا عام جديثٌ وعام فيه إخصاب
فلا تغرنك الدنيا بزخرفها فأريها إن بلاها عاقل صاب
والحزم يجني أموراً كلها شرف والخرق يجني أموراً كلها عاب
قال ابن القيم: ضرر الذنوب في القلب كضرر السموم في الأبدان، فمما
ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر
السموم في الأبدان، على اختلاف درجتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شر
وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى
دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسح ظاهره
وباطنه، فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدل
بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحاً وبالجنة ناراً تلظى، وبالإيمان كفرأً،
وبموالاة الوالي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبرجل التسييح والتقديس والتهليل
رجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، ولباس الإيمان لباس الكفر
والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينيه غاية السقوط،
وحل عليه غضب الرب تعالى فأغواه، ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قواداً لكل
فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعاذا بك اللهم من
مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

ومن الذي أغرق أهل الأرض حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟ ومن
الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم أموات على وجه الأرض كأنهم أعجاز

نخل خاوية ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟ ومن الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟

ومن الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد ومن الذي أرسل على قوم شعيب سحب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلتظى؟

ومن الذي أغرق فرعون وقومه في البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟

ومن الذي خسف بقارون من بعد نوح وداره وماله وأهله؟

ومن الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميراً؟

ومن الذي أهلك قوم صاحب يسين بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

ومن الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد، جاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبرأوا ما علوا تتبرأ؟

ومن الذي سلط عليهم أنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ الأعراف.

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمان بن جبير بن نفيير عن أبيه قال «لما فُتحت قبرص فُرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء، جالساً وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا

أمر الله فصاروا إلى ما ترى».

وقال علي بن الجعد: أنبأنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا البختری يقول: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول «لن يهلك الناس حتى يعذروا⁽¹⁾ من أنفسهم».

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول، «إذا ظهرت المعاصي في أمة عمَّهم الله بعذاب من عنده فقلت: يا رسول الله، أما فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: بلى، قلت: فكيف يصنع بأولئك؟ قال: يُصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان».

وفي مراسيل الحسن عن النبي ﷺ: «لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالئ⁽²⁾ قراؤها أمراؤها وما لم يُزَكَّ صلحاؤها فجارها، وما لم يُهن خيارها أشرارها، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر».

وفي المسند من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه».

وفيه أيضاً عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها».

قلنا يارسول الله أمن قلة نحن يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثيرٌ ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تُنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكرهية الموت».

وفي المسند من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم».

(1) حتى يعذروا: حتى تكثر ذنوبهم وعبوبهم.

(2) يمالئ قراؤها أمراؤها.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يخرج في آخر الزمان قوم يحتلون الدنيا بالدين، ويلبسون الناس مسوك الضأن⁽¹⁾ من اللين، ألسنتهم أحلى من السكر، وقلوبهم الذئاب، يقول الله ﷻ: أبي يغترون؟ وعلي يغترون، فبي حلفت، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم فيها حيران».

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال علي: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، مساجدهم يومئذ عامرة، وهي خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أديم السماء، منهم خرجت الفتنة، وفيهم تعود».

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمان بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله ﷻ بهلاكها».

ومن مراسيل الحسن: «إذا أظهر الناس العلم وضيعوا العمل، وتحابوا بالأسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا الأرحام، لعنهم الله ﷻ عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم».

وفي سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: «كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواغيت والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، فلولا البهائم لم يمطروا، ولا خفر قوم إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله ﷻ في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم».

وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من كان قبلكم

(1) مسوك الضأن: جلودها، واحدا مسك، بكسر فسكون.

كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعزيراً، فإذا كان الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله ﷻ ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذي نفس محمد بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفية، ولتأطرنه على الحق أطراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم».

وذكر بن أبي الدنيا عن ابراهيم بن عمرو الصنعاني قال: «أوحى الله إلى يوشع بن نون أني مهلك من قومك أربعين ألف من خيارهم، وستين ألف من شرارهم، قال: يا رب هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم».

وذكر أبو عمر بن البر عن أبي عمران قال: «بعث الله ﷻ ملكين إلى قرية: أن دمرها بمن فيها فوجدوا فيها رجلاً قائماً يصلي في مسجد، فقالا: يارب إن فيها عبدك فلاناً يصلي، فقال الله ﷻ: دمرها ودمرها معهم فإنه ما تمعر وجهه في قط».

وذكر الحميدي بن سفيان بن عيينة قال: حدثني سفيان بن سعيد عن مسعر «أن ملكاً أمر أن يخسف بقرية، فقال: يا رب إن فيها فلان العابد، فأوحى الله ﷻ إليه إن به فأبداً، فإنه لم يتمر وجهه في ساعة قط».

وذكر ابن أبي الدنيا عن وهب بن منبه قال: «لما أصاب داود الخطيئة قال: يارب أغفر لي قال: قد غفرت لك، وألزمت عارها بني إسرائيل قال: يا رب كيف وأنت الحكم العدل لا تظلم أحد أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيري؟ فأوحى الله ﷻ إليه: إنك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار».

وذكر ابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك «أنه دخل على عائشة هو ورجل آخر، فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة فقالت: إذا استباحوا الزنا، وشربوا الخمر، وضربوا بالمعازف غار الله ﷻ في سمائه، فقال للأرض: تزلزلي بهم، فإن تابوا ونزعوا، وإلا هدمها عليهم قال: يا أم المؤمنين أعذاباً لهم؟ قالت: بل

موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالاً وعذاباً وسخطاً على الكافرين، فقال أنس: ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحاً به مني بهذا الحديث».

وذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلاً «إن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله ﷺ عليه وسلم فوضع يده عليها، ثم قال: اسكني، فإنه لم يأن لك بعد ثم التفت إلى أصحابه، فقال: إن ربكم ليستعتبكم فاعتبوه، ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب، فقال أيها الناس ما كانت هذه الزلزلة إلا على شيء أحدثتموه، والذي نفسي بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبداً».

وفي مناقب عمر لابن أبي الدنيا «أن الأرض تزلزلت على عهد عمر فضرب يده عليها وقال: مالك؟ مالك؟ أما أنها لو كانت القيامة حدثت أخبارها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق».

وذكر الإمام أحمد عن صفية قالت: «زلزلت المدينة على عهد عمر، فقال: يا أيها الناس ما هذا؟ ما أسرع ما أحدثتم، لئن عادت لا أساكنكم فيها».

وقال كعب: «إنما تزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي فترعد فرقاً خوفاً من الرب ﷻ أن يطلع عليها».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار «أما بعد، فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله ﷻ به العباد، وقد كتبت إلى الأمصار أن يخرجوا في يوم كذا وكذا، في شهر كذا وكذا فمن كان عنده شيء فليصدق به، فإن الله ﷻ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٥٦﴾ الأعلى، وقولوا كما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف، وقولوا كما قال نوح: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هود، وقولوا كما قال يونس: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الأنبياء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الاعمش عن

عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة⁽¹⁾ وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم البلاء لا يُرفع حتى يراجعوا دينهم» رواه أبو داود بإسناد حسن.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال: لقد رأيتنا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم، ولقد سمعت الرسول ﷺ يقول: «إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة، وتركوا الجهاد في سبيل الله وأخذوا أذناب البقر، أنزل الله عليهم من السماء بلاء، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم».

قال الحسن: «إن الفتنة والله ما هي إلا عقوبة من الله ﷻ على الناس» ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بهم بُخْتَنْصُر فقال: «بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا».

وقال بُخْتَنْصُر لدانيال: ما الذي سلطني على قومك؟ قال: «عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم».

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبي ﷺ: «إن الله ﷻ إذا أراد بالعباد نقمة أمات الأطفال وأعقم أرحام النساء، فتنزل النعمة، وليس فيهم مرحوم».

وذكر عن مالك بن دينار قال: قرأت في الحكمة: يقول الله ﷻ (أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عليكم).

ومن مراسيل الحسن «إذا أراد بقوم خيراً جعل أمرهم إلى حلمائهم، وفيئهم عند سمحائهم، وإذا أراد الله بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفهائهم وفيئهم عند بخلائهم».

(1) العينة، بكسر العين وفتح النون: النسبة، وفسرها الفقهاء: بأن يبيع الرجل متاعه إلى أجل ثم يشتريه في المجلس بثمن حال ليسلم به من الربا وهي أخت الربا.

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة قال: قال موسى «يا رب أنت في السماء، ونحن في الأرض فما علامة غضبك من رضاك؟ قال: إذا استعملت عليكم خياركم فهو علامة رضائي عنكم، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو علامة سخطي عليكم».

وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني».

وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه «والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة، ووزراء فجرة، وأعواناً خونة، وعرفاء ظلمة وقرأ فسقة، سيماهم سيماء الرهبان، وقلوبهم أتنن من الجيف، أهواؤهم مختلفة، فيفتح الله لهم فتنة غرباء مظلمة فيتهاوكون فيها، والذي نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة، حق لا يقال الله، الله، لتأمرون بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم، ولا يوقر كبيركم».

وفي معجم الطبراني وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ما طففوا قوم كيلاً، ولا بخسوا ميزاناً إلا منعهم الله ﷻ القطر، وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، وما ظهر في قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون، ولا ظهر في قوم القتل - بقتل بعضهم بعض - إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا ظهر في قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم ترفع أعمالهم ولم يسمع دعاؤهم» رواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمان بن زيد عن أبيه عن سعيد بنه.

وفي المسند وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت: «دخل عليّ

رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس⁽¹⁾ فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء، فما تكلم حتى توضأ، وخرج، فلصقت بالحجرة، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال، يأيها الناس إن الله ﷻ يقول لكم، مروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتستنصروني فلا أنصركم، وتسألوني فلا أعطيكم».

وقال العمري الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك على الله أن ترى ما يسخط الله فتجاوزته، ولا تأمر فيه، ولا تنهي عنه، خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً.

وقال: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه.

وذكر الإمام أحمد في مستنده من حديث قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصديق «يأيها الناس، إنكم تتلون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها» ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ المائدة، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده - وفي لفظ: إذا رأوا المنكر فلم يغيروه - أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده».

وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَفِيتِ الْخَطِيئَةَ لَمْ تَضُرْ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا ظَهَرَتْ فَلَمْ تُغَيِّرْ ضَرَّتِ الْعَامَّةَ».

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب «توشك القرى أن تخرب وهي عامرة؟ قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجَارُها أبرارها، وساد القبيلة منافقوها».

وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية عن النبي ﷺ قال: «سيظهر شرار أمتي

(1) حفزه النفس: استعجل.

على خيارها، حتى يستخفى المؤمن فيهم، كما يستخفى المنافق فينا اليوم».

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال: «يأتي زمان يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء، قيل: مم ذاك يا رسول الله؟ قال مما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره».

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبي ﷺ قال: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، هم أعز وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه إلا عمهم الله يعقاب».

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أفتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أألمت كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى، إني كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية».

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال: «كان حبر من أحبار بني إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء، فيعظهم ويذكرهم بأيام الله، فرأى بعض بنيه يوماً يغمز النساء، فقال: مهلاً يا بني مهلاً يا بني، فسقط من سريره، فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقُتل بنوه، فأوحى الله إلى نبيهم: أن أخبر فلاناً الحبر: أني لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً ما كان غضبك لي إلا أن قلت: مهلاً يا بني».

وذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثّل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها».

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك قال: «إنكم لا تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، وإن كنا لا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات».

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «عُذبت امرأة في هرة، سجنها حتى ماتت، فدخلت النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

وفي الحلية لأبي نعيم عن حذيفة أنه قيل له: «في يوم واحد تركت بنوا إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه وإذا نهوا عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه».

ومن هنا قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن القبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت.

وفي الحلية أيضاً عن ابن عباس أنه قال: «يا صاحب الذنب لا تأمن سوء العاقبة، وما يتبع الذنب أعظم من الذنب الذي عملته: قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال - وأنت على الذنب - أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حرّكت ستر بابك وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب، ويحك هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه، فلم ينه الظالم عن ظلمه فابتلاه الله».

قال الإمام أحمد حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعي يقول: سمعت بلال بن سعد يقول: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت» الذنوب كلها سهوم قتالة لا فرق بين كبيرها وصغيرها.

قال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك، يعظم عند الله، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

وقيل: أوحى الله إلى موسى، يا موسى إن أول من مات من خلقي إبليس، وذلك أنه عصاني، وإنما أعد من عصاني من الأموات.

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله ﷻ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» المطففين، قال الترمذي هذا حديث صحيح وقال حذيفة: «إذا أذنب العبد ذنباً نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء، حتى يصير قلبه كالشاة الرداء».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح عن أبي شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عقبة عن عبد الله بن مسعود أن الرسول ﷺ قال: «أما بعد: يا معشر قريش، فإنكم أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله، فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحكم كما يلحى هذا القضيب بقضيب في يده، ثم لحى قضيبه فإذا هو أبيض يضلد».

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: إن الرّب ﷻ قال في بعض ما يقول لبني إسرائيل: «إني إذا أطعت رضيت، وإذا رَضِيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا غَضِيت غضبت، وإذا غَضِبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد».

وذكر أيضاً عن وكيع حدثنا زكريا عن عامر قال: كتبت عائشة إلى معاوية «أما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس دائماً».

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال: «ليحذر امرؤ أن تلعه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر ثم قال أتدري مما هذا قلت لا قال إن العبد يخلو بمعاصي الله فليلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر».

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين: أنه لما ركب الدّين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

وها هنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسى، ويظن العبد أنه لا يُغير بعد ذلك، وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يغبر حائط في وقوعه فليس له بعد الوقوع غبار
وسبحان الله! ماذا أهلكَتْ هذه النكتة من الخلق؟ وكم أزالَتْ من نعمة؟
وكم جلبت من نقمة؟ وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء، فضلاً عن
الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السم وكما
ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء «اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا
أنفسكم في الموتى، واعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أن البر
لا يبلى، وأن الإثم لا ينسى».

ونظر بعض العباد إلى صبي فتأمل محاسنه، فأُتي في منامه وقيل له: لتجدن
غَيْبَهَا⁽¹⁾ بعد أربعين سنة.

وهذا مع أن للذنب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه، قال سليمان التيمي: إن
الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلتة.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا
تشتت بي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له، قيل: وكيف ذلك؟ قال:
يعصي الله ويشمت به في القيامة كل عدو.

وقال ذو النون: من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية.

فصل (1): من آثار المعاصي

يا غاديا في غفلة ورائحا	إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفا	يستنطق الله به الجوارحا
واعجبا منك وأنت مبصر	كيف تجنبت الطريق الواضحا
وكيف ترضى أن تكون خاسراً	يوم يفوز من يكون رابحا

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا

(1) غَيْبَهَا: بكسر الغين وتشديد الباء: عاقبتها.

والآخرة مالا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وقور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقال الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال: اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي
ومنها: حرمان الرزق، وفي المسند ((إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه)).
وقد تقدم، وكما إن تقوى الله مجلبة للرزق، فترك التقوى مجلبة للفقر، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي.

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشية، وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلام، فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة، لكان العاقل حرياً بتركها.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه، فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واسـتأنس
وليس على القلب أمر من وحشة الذنب، فالله المستعان.

ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بُعد منهم ومن مجالستهم، وحُرِمَ بركة الانتفاع بهم، وقُرب من حزب الشيطان، بقدر ما بُعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشاً من نفسه.

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله فأرى ذلك في خلق دابتي وامراتي، ومنها: تعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً، ويا لله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطريقها معسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتت؟

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم الداهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواداً فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس: «إن للحسنة ضياء في الوجه، ونور في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق وبغضاً في قلوب الخلق».

ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية.

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته في قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه.

وأما الفاجر فإنه - وإن كان قوي البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه، وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟

ومنها: حرمان الطاعة، فلولم يكن للذنوب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله وتقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه بالذنوب طريق ثالثة، ثم رابعة وهلم جر، فينقطع عليه بالذنوب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكالات أطيب

منها، والله المستعان.

ومنها: أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بدّ، فإن البر كما يزيد في العمر فالفجور يقصر العمر.

وقد اختلف الناس في هذا الموضع.

فقال طائفة: نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحققا عليه.

وهذا حق، وهو بعض تأثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة، كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه البركة

في الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده.

قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق

والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء

الرب ﷻ، فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها موجهة لمسبباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة

الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حي، كما قال تعالى:

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته

فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد

في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام

حياته الحقيقية التي يجد غب إضاعتها يوم ﴿ يَقُولُ يَلَيِّتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴾

النازعات، فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية

أولاً، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً،

وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسرت عليه أسباب

الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه،

والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته هكذا يقول العارفون.

فصل (2): تولد المعاصي

أيا عاملاً للنار جسمك لين فجربه تمرينا بحر الظهيرة
ودرجه في لسع الزنابير تجتري على نهش حيات هناك عظيمة
فإن كنت لا تقوى فويلك ما الذي دعاك إلى إسقاط رب البرية

ومنها: إن المعاصي تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضاً، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة بعدها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها: اعلمي أيضاً، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك، وهلم جرا، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات وكذلك جانب السيئات أيضاً، حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة، وملكات ثابتة، فلو عطل المحسن الطاعة لضاعت عليه نفسه، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذ فارق الماء حتى يعاودها، فتسكن نفسه وتقر عينه، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاعت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعت عليه مذاهبه، حتى يعاودها، حتى إن كثيراً من الفساق ليوافق المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هاني حيث يقول:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال آخر:

فكانت دوائي وهي دائي بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤذيه إليها أذاً، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤذيه إليها أذاً فالأول قوى جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه، وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعواناً عليه.

فصل (3): المعصية تضعف إرادة الخير

ومنها: وهو من أخوفها على العبد، أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير وقلبه معقود بالمعصية، مصرّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

فصل (4): التعود على المعصية مصيبة قاسية

لقد أخبرتك الحادثات نزولها ونادتك إلا أن سمعك ذو وقر تنوح وتبكي للأحبة أن مضوا ونفسك لا تبكي وأنت على الأثر ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية النفس له، ولا كلامهم فيه، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهلكة وتمام اللذة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يافلان عملت كذا وكذا، وهذا الضرب من الناس لا يعفون، ويسد عليهم طريق التوبة، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبي ﷺ «كُلُّ أُمِّي معافى إلى المجاهرون، وإن من الإجهار: أن يستر الله العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يافلان عملت اليوم كذا وكذا وكذا، فهتك نفسه، وقد بات يستره ربه».

ومنها: أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله ﷻ، فاللوطية ميراث عن قوم لوط، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون، والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود، فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الأمم وهم أعداء الله. وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: لا يدخلوا مداخل أعدائي، ولا يلبسوا ملابس أعدائي، ولا يركبوا مركب أعدائي ولا يطعموا مطاعم أعدائي، فيكونون أعدائي كما هم أعدائي» وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن

النبي ﷺ: قال «بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم».

فصل (5): هوان العاصي على ربه وشؤمه على نفسه

خَلَّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقوى
واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقـرن صغيرة إن الجبال من الحصى
ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ الحج. وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفا من شرهم، فهم قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه، وذلك علامة الهلاك، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله. وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا، وأشار بيده فطار».

فصل (6): شؤم الذنوب وعاقبة من لم يتب

ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم، وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة، وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون:

منعنا القطر بذنوب بني آدم.

فلا يكفيه عقاب ذنبه، حتى يلعنه من لا ذنب له.

فصل (7): المعصية تورث الذل بعد العز وتزيل النعمة بعد حلولها

قال أبو العتاهية:

فلو كان هون الموت لا شيء بعده لهان علينا الأمر واحتقر الأمر
ولكنه حشر ونشر وجنة ونار وما قد يستطيل به الخبر
ومنها أن المعصية تورث الذل ولا بدّ، فإن العز كل العز في طاعة الله
تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ آلَ عِزَّةٍ فَلِلَّهِ آلَ عِزَّةٍ جَمِيعًا﴾ فاطر أي فليطلبها بطاعة الله،
فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك،
وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين إن ذل
المعصية لا يفارق قلوبهم، أباي الله إلا أن يذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك:
رأيت الذنوب تميت القلوب ورث الـذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

فصل (8): المعاصي تفسد العقل

ومنها أن المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفئ نور
العقل ولا بدّ، وإذا طفى نوره ضعف ونقص.

وقال بعض السلف: ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله، وهذا ظاهر، فإنه لو
حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره، وهو
مطلع عليه، وفي داره وعلى بساطه وملائكته شهود عليه ناظرون إليه! وواعظ
القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه، والذي
يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف - أضعاف ما يحصل له من السرور

واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله الاستخفاف به ذو عقل سليم؟

فصل (9): الذنوب تطبع على القلب

قال سيدي عبد القادر بن محمد في ياقوته

ام كيف رضاء الله يدركه الذي يساخط ربه ويرضي الخليقة

ام كيف لمغتاب الوري ذى نميمة يموت شهيداً أو على خير ملة

ام كيف لمسرف الطعام وشربه يذوق مذاقاً أو يفوز بشمة

كذا من عرف بالفسوق ونحوها يجازى بفعله القبيح ولعنة

فلم يمثل أمراً ولم يجتنب نهياً ولم يذكر المولى خبيث السريرة

ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين

كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

﴿المطففين﴾، قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمي القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم وأصل هذا أن

القلب يصد أمن المعصية، فإذا زادت غلب الصدا حتى يصير راناً، ثم يغلب حتى

يصير طبعاً وقفلاً وختماً، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد

الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحيث يتولأ عدوه ويسوقه حيث أراد.

فصل (10): الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ

إنني بليت بأربع ما سلطوا إلا لأجل شقاوتي وعنائتي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي

ومنها: إن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ، فإنه لعن على

معاص والتي غيرها أكبر منها فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة، فلعن الواشمة

والمستوشمة، والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة،

ولعن آكل الربا وموكله، وكاتبه وشاهده، ولعن المحلل والمحلل له ولعن السارق،

ولعن شارب الخمر وساقياها، وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومشتريها، وأكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه، ولعن من غير منار الأرض وهي أعلامها وحدودها، ولعن من لعن والديه، ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بسهم، ولعن المختشين من الرجال والمترجلات من النساء، ولعن من ذبح لغير الله، ولعن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً، ولعن المصورين، ولعن من عمّل عملاً قوم لوط، ولعن من سب أباه وأمه، ولعن من كره أعمى عن الطريق، ولعن من أتى بهيمة، ولعن من وسم دابة في وجهها، ولعن من ضار مسلماً أو مكر به، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرج، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكاً على سيده، ولعن من أتى امرأة في دبرها، وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح، ولعن من انتسب إلى غير أبيه، وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ولعن من سب أصحابه، وقد لعن الله في كتابه من أفسد في الأرض وقطع رحمه، وآذاه وآذى رسول الله ﷺ .

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى.

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة.

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين.

ولعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل، ولعن الراشي والمرتشي والرائش، وهو الواسطة في الرشوة، ولعن على أشياء أخرى غير هذه.

فلولم يكن في فعل ذلك إلا رضا فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

فصل (11): حرمان دعوة رسول الله ﷺ

ولا يذهبن العمر منك سهلاً ولا تغبنن بالنعمتين بل أجهد
فمن هجر اللذات نال المنى ومن اكب على اللذات عض على اليد
ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيه

أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمْتَهُ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝﴾ غافر.

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة الرسول اللذين لا سبيل له غيرهما، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها، والله المستعان.

فصل (12): ما رآه الرسول من عقوبات العصاة: وما يحل بهم

من عذاب

تخبرني الأمال إنني معمّر	وان الذي أخشاه عني مؤخر
فكيف ومر الأربعين قضية	علي بحكم قاطع لا يغير
إذا المرء جاز الأربعين فإنه	أسير لأسباب المنايا ومغبر

ومن عقوبات المعاصي، ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب قال: «كان النبي ﷺ مما كان يكثر أن يقول لأصحابه هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟ فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: إنه أتاني لليلة آتيان، وإنهما انبعثا لي، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطج، وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ⁽¹⁾ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا، فيتبع الحجر، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى، قال: قلت لهما:

(1) يثلغ: يشدخ، ويتدهده: يتدحرج.

سبحان الله! ما هذا؟ قالوا لي: انطلق - انطلق، فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلقٍ لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقا وجهه ويشرشر شذقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى، قال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ فقالوا لي: انطلق - انطلق، فانطلقنا، فأتينا على مثل التنور، فإذا فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منها، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضؤ ضووا⁽¹⁾ فقال: قلت لهم: ما هؤلاء؟ قالوا لي: انطلق - انطلق فاطلقنا فأتينا على نهر أحمر الدم، فإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما شاء الله أن يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق فيسبح، ثم يرجع إليه، كما رجع إليه ففغر له فاه، فيلقمه حجراً، قلت لهما: ما هذان؟ قالوا لي: انطلق - انطلق، فانطلقنا، فأتينا على رجل كربه المرأة أوكأكره ما أنت راء رجل مرأى، وإذا هو عنده نار يحشها⁽²⁾ ويسعى حولها، قال قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالوا لي: انطلق - انطلق، فانطلقنا حتى أتينا على روضة مُعتمة⁽³⁾ فيها من كل نور الربيع⁽⁴⁾ وإذا بين ظهراني الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالوا لي: انطلق - انطلق، فانطلقنا، فأتينا إلى دوحة عظيمة⁽⁵⁾ لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن، قال: قالوا لي: ارق فيها، فارتقينا فيها إلى

(1) أي ضجوا وصاحوا.

(2) أي يوقدها.

(3) الروضة: الأرض الخصبة، والمعتم، يضم الميم الأولى وتشديد الميم الثانية، أي وافية النبات طويلته.

(4) نور الربيع بفتح النون: زهره.

(5) الدوحة: الشجرة العظيمة.

مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، قال: فأتينَا باب المدينة، فاستفتحنا، ففتح لنا فدخلناها، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشر من خلقهم كأقبح ما أنت راءٍ، قال: قالوا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض⁽¹⁾ في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا، قد ذهب ذلك السوء عنهم، قال: قالوا لي: هذه جنة عدن، وها ذاك منزلك، قال: فسما بصري صعدا، فإذا قصر مثل الربابة⁽²⁾ البيضاء، قال: قالوا لي: هذا منزلك، قلت لهما: بارك الله فيكما فذراني فأدخله، قالوا: أما الآن فلا، وأنت داخله، قلت لهما: فإنني رأيت منذ الليلة عجباً، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالوا لي: أما إنا سنخبرك:

أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن، فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شذقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الأفاق.

أما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني، وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر، ويلقم الحجارة، فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه، المرأة الذي عند النار يحشها ويسعى حولها فإنه مالك خازن جهنم، وأما الرجل الطويل في الروضة، فإنه إبراهيم.

وأما الولدان الذين حوله، فكل مولود مات على الفطرة، وفي رواية البرقاني: ولد على الفطرة، فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ وأولاد المشركين وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشر منهم قبيح، فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم.

(1) المحض: الخالص من كل شيء والمراد به هنا اللبن.

(2) الربابة: السحابة.

فصل (13): الذنوب تحدث الفساد في الأرض وتحرق

اليابس والأخضر

يا منفق العمر في حرص وفي طمع إلى متى قد تولى وانقضى العمر
 إلى متى ذا التماذي في الضلال اما تشيك موعظة لو ينفع الذكر
 بادر متابا عسى ما كان من زلل وما اقترفت من الأثام يغتفر
 وجنب الحرص واتركه فما احد ينال بالحرص ما لم يعطه القدر
 ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في
 المياه والهواء والزروع والثمار، والمساكن، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ١١١ الروم.

قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد فيحبس الله بذلك القطر
 فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ١١١ ثم قال: أما
 والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر. وقال عكرمة: ظهر
 الفساد في البر والبحر، أما إني لا أقول لكم: بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء،
 وقال قتادة: أما البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف.

قلت⁽¹⁾: وقد سمي الله تعالى الماء العذب بحراً فقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ
 هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ فاطر. وليس في العالم بحر حلو
 واقف، وإنما هي الأنهار جارية، والبحر مالح هو الساكن، فسمى القرى التي عليها
 المياه الجارية باسم تلك المياه، وقال ابن زيد (ظهر الفساد في البر والبحر) قال:
 الذنوب.

(1) القائل هو ابن القيم رحمة الله في كتاب الداء والدواء.

قلت⁽¹⁾: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ لام العاقبة والتعليل، وعلى الأول: فالمراد بالفساد، النقص والشر والآلام يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة، كما قال بعض السلف: كما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة.

والظاهر، والله أعلم، أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ فهذا حالنا، وإنما أذقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة.

ومن تأثير المعاصي في الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها، وقد مر رسول الله ﷺ على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن يتلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح⁽²⁾ لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفاق.

وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: «وجد في خزائن ابن أمية: حبة حنطة بقدر نواة التمر، وهي في صرة مكتوب عليها: هذا كان ينبت في زمان العدل». وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قرب.

وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق، فقد روى الترمذي في جامعة عنه ﷺ أنه قال: «خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة، يخرج عبداً من

(1) القائل هو ابن القيم رحمه الله.

(2) النواضح: الإبل يستقي عليها الماء واحدها ناضح.

عباده من أهل بيت نبيه ﷺ فيملاً الأرض قسطاً كما ملئت جوراً، ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركتها، وتعود كما كانت، حتى أن العصابة من الناس ليأكلون الرماية ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير، وإن اللقحة الواحدة لتكفي الفئات من الناس⁽¹⁾، وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى ومحقت الذنوب والكفر، ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض، ما يشكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه آثار في الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم، فتناسبت كلمة الله وحكمة الكون أولاً وآخرأً، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجنابة، والأخف للأخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشيطان ومحلّه وداره، فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره، وعمله، وقوله، ورزقه، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت - اي إبليس - نزعت البركة كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك من الروح والرحمة والبركة

فصل (14): الذنوب تطفئ الغيرة وتميز العبد كالحَيوان

ومن عقوبات الذنوب: أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزة لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلامهم همة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس، ولهذا كان ﷺ أغير الخلق على الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني». وفي الصحيح أيضاً أنه قال في خطبة الكسوف: «يا أمة محمد ما أحد أغير

(1) الفئات: الجماعة الكثيرة العدد.

من الله أن يزني عبده أو تزني أمته».

وفي الصحيح أيضاً أنه قال: «لا أحد أغیر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه». فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان، والله سبحانه - مع شدة غيرته - يجب أن يعتذر له عبده، ويقبل عذر من أعتذر إليه، وأنه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله وانزل كتبه أعتذاراً وإنذاراً، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال، فإن كثيراً ممن تشدد غيرته من المخلوقين يحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير أعتذار منه، ومن غير قبول العذر من اعتذار إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير، ويرى عذراً ما ليس بعذر، حتى يعتذر كثيراً منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله، فالتى يبغضها الله الغيرة في غير ريبة» وذكر الحديث.

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محل الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً.

ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قاده تلك الصفة إليه بزمانها وأدخلته على ربه، وأدنته وقربته من رحمته، وصيرته محبوباً له، فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قوي يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حيي يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وتر يحب أهل الوتر.

ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة، فإن الخطرة تنقلب وسوسة، والوسوسة تصير إرادة، والإرادة تقوى فتصير عزيمة، ثم تصير فعلاً، ثم تصير صفة لازمة وهيبة ثابتة راسخة، وحيث يتعذر الخروج منها كما يتعذر الخروج من صفاته القائمة به.

والمقصود أنه كما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك وكثيراً من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله، والجنة عليه حرام، وكذلك محلل الظلم والبغي لغيره ومزينه له، فانظر من الذي حملت عليه قلة الغيرة في عهدنا نسأل الله لنا ولهم التوبة المقبولة لا تعقبها معصية

وهذا يدل على أن أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش وعدم الغيرة تमित القلب فتموت له الجوارح فلا يبقى عندها دفع آلية، ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً، ولم يجد دافعاً، فتمكن فكان الهلاك، ومثله مثل صياصي الجاموس⁽¹⁾ التي يدافع بها عن نفسه وولده، فإذا كسرت طمع فيه عدوه. قال عليه الصلاة والسلام «إذا ذهبت الغيرة من الرجال والحياء من النساء فلتودع أمتي الإيمان» ولذا حرم الإسلام لحم الخنزير نسأل الله العافية.

فصل (15): المعاصي تذهب الحياء وتضعف الإيمان

ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

(1) صياصي الجاموس: قرونه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «الحياء خير كله».

الحياء كله خير، وكان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها انظر الشمائل

للنبهاني

وقال «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما

شئت» وفيه تفسيران.

أحدهما: أنه على التهديد والوعيد، والمعنى من لم يستح فإنه يصنع ما شاء

من القبائح، إذ الحامل على تركها الحياء، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح

فإنه يواقعها، وهذا تفسير أبي عبيدة.

والثاني: إن الفعل إذا لم تستح من الله فافعله، وإنما الذي ينبغي تركه هو ما

يستحي منه العبد من الله، وهذا تفسير الإمام أحمد في رواية ابن هانئ.

قال الشافعي رحمه الله:

إذا لم تخشى عاقبة الليالي ولم تسحي فاصنع ما تشاء

فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

فعلى الأول يكون تهديداً، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ فصلت، وعلى

الثاني يكون إذناً وإباحة.

فإن قيل: فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين؟

قلت⁽¹⁾ لا ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه، لما بين

الإباحة والتهديد من المنافاة، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر.

والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد، حتى ربما انسلخ منه

بالكلية، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا بإطلاعهم عليه، بل كثيراً

منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا

وصل العبد إلى هذه الحال لم يبقى في صلاحه مطمع، يعيش المرء ما استحياء

بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء.

(1) القائل هو الإمام ابن القيم رحمه الله.

وإذا رأى إبليس طلعة وجهه حياً وقال: فديت من لا يفلح
وإذا بلغ الحال إلى هذا الحد قبله الشيطان بين عينيه وقال له مرحباً بوجه
لا يفلح.

والحيا مشتق من الحياة، والغيث يسمى حيا - بالقصر - لأن به حياة
الأرض والنبات والدواب وكذلك سميت بالحياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء
فيه فهو ميت في الدنيا شقى في الآخرة، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة
تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثاً، ومن استحيا من الله
عند معصيته استحيا الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحي من معصيته لم
يستحي من عقوبته.

فصل (16): المعاصي تضعف في القلب تعظيم الرب

توارى بجدران البيوت عن الورى وأنت بعين الله لو كنت تنظر
وتخشى عيون الناس أن ينظرو بها ولم تخش عين الله والله ينظر
وهذا المكر بعينه: ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم
الرب ﷻ، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله
وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال إنما
يحملني على المعاصي حسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي،
وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضي تعظيم
حرماته وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب، والمتجزئون على معاصيه ما
قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويجله
من يهون عليه أمره؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالمعاصي عقوبة
أن يضمحل من قلبه تعظيم الله ﷻ، وتعظيم حرمته، ويهون عليه حقه.

يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن
ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله ﷻ مهابته من قلوب الخلق، ويهن
عليهم ومن يهن الله فما له من مكرم، ويستخفون به، كما هان عليه أمره واستخف

به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبد حرمت الله ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته، أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، فطبع عليها بذنوبهم، أنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَنْ يَنْ أَلَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ الحج، فإنهم لما هان عليهم السجود له واستحقوا به ولم يفعلوه أهانهم الله، فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟ ولقد كان الكثير من شباب عصرنا النصيب الأوفر من هذه الصفة الخاسرة نسأل الله لنا ولهم الرجوع بعد الفرار.

فصل (17): المعاصي تنسي الله

فيا عجباً ندري بنار وجنة وليس الذي نشاق أو تلك نحذر
إذا لم يكن خوف وشوق ولا حيا فماذا بقي فينا من الخير يذكر
وليس لحر صابرين ولا بلى فكيف على النيران يا قوم نصبر
وفوت حنان الخلد أعظم حسرة على تلك وليستحر المتحسر
فأف لنا أف كلاب مزابل إلى نتنها نغدو ولا نتدبر

ومن عقوبتها: أنها تستدعي نسيان الله لعبده وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّوَا اللَّهَ وَلَتَنْتَظِرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ ؕ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ؕ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾ الحشر.

فأمر بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه

عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه، أي أنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها فأنساه الله ذلك كله جزاءً لما نسيه من عظمته وخوفه، والقيام بأمره، فترى العاصي مهمل لمصالح نفسه، مضيقاً لها، وقد أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه فكان أمره فرطاً، قد انفرط عليه مصالح دنياه وأخرته فقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة، وإنما هي سحابة صيف أو خيال طيف، كما قيل:

أو أحلام نوم، أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع
وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعته حظها ونصيبها من الله، وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض:

من لكل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض
فالله سبحانه وتعالى يعوض كل ما سواه ولا يعوض منه شيء، ويعني عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء ويجبر من كل شيء ولا يجبر من شيء ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفه عين؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم، فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذي ظلم نفسه.

فصل (18): المعاصي تخرج صاحبها من دائرة الإحسان

إذا ما دعاك الرشد أحجمت دونه وأنت إلى ما قادك الغي تبذُر
وليس يقوم الشكر منك بنعمة ولكن عليك الشكر إن كنت تشكر
ومن عقوباتها: أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه ثواب المحسنين فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبه وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية فضلاً عن مواقععتها، فإذا خرج من دائرة الإحسان فإنه صحبة رفقة الخاصة، وعيشهم الهانئ ونعيمهم التام، فإن أراد الله به

خير أقره في دائرة عموم المؤمنين، فإن عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه فيها الناس أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن» فإياكم إياكم والتوبة معروضة بعد.

فصل (19): العاصي يفوته ثواب المؤمنين

ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا فاته كل خير رتبته الله في كتابه على الإيمان، وهو نحو مائة خصلة منها خير الدنيا وما فيها.

فمنها الأجر العظيم ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء، ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ الحج. ومنها استغفار الملائكة وحملة العرش لهم: ﴿ الَّذِينَ تَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَكَسَتُغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ غافر.

ومنها موالاة الله لهم، ولا يذل من مولاه الله، قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ البقرة.

ومنها أمره الملائكة بتثيتهم: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ الأنفال.

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم. ومنها العزة: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ المنافقون.

ومنها معية الله لأهل الإيمان: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال.

ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا
الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة.

ومنها: إعطاؤهم كفلين من رحمته، وإعطاؤهم نوراً يمشون به، ومغفرة
ذنوبهم.

ومنها: الود الذي يجعله الله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحبهم إلى
ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ
لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ مريم.

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأنعام.

ومنها: أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في
كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنها أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى
وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن
مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فصلت.

والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير، وكل خير في الدنيا والآخرة
فسببه الإيمان وكل شر في الدنيا والآخرة فسببه عدم الإيمان فكيف يهون على العبد
أن يرتكب شيئاً يخرج من دائرة الإيمان ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من
دائرة عموم المسلمين؟ فإن استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يرين
على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن ههنا اشتد خوف السلف، كما قال
بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر.

فصل (20): المعاصي تضعف القلب

ما لي رأيت بني الدنيا قد افتتنوا كأنما هذه الدنيا لهم عرس

إذا وصفت لهم دنياهم ضحكوا وإن وصفت لهم آخراهم عبسوا
 ما لي رأيت بني الدنيا قد وإخوتها كأنهم لكتاب الله ما درسوا
 ومن عقوباتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو
 توقفه وتقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته
 إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب، والقلب إنما
 يسير إلى الله بقوته فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت
 بالكلية انقطع عن الله أنقطاعاً يبعد تداركه والله المستعان.

فالذنب إما أن يميت القلب أو يمرضه مرضاً مخوفاً، أو يضعف قوته ولا
 بد، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ: «وهي الهم
 والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين⁽¹⁾ وغلبة الرجال» وكل اثنين
 منها قريان.

فالهم والحزن قريان، فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر
 مستقبل يتوقعه أحدث الهم، وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن.

والعجز والكسل قريان، فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن
 كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل، والجبن والبخل
 قريان، فإن عدم النفع منه إن كان بيديه فهو الجبن وإن كان بماله فهو البخل. وضلع
 الدين وقهر الرجال قريان، فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع
 الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال.

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنها من
 أقوى الأسباب الجالبة: «لجهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة
 الأعداء»، ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحول عافيته إلى نقمته
 وتجلب جمع سخطه.

(1) ضلع الدين: ثقله حتى يغلب ويقهر.

فصل (21): المعاصي تزيل النعم وتبدلها بالنقم

يا لذة الفساق ليست كلذة الأبرار في عقل ولا قرآن
ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد
نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب، كما قال سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام
(ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلى بتوبة) وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ
مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ الشورى، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ
بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الأنفال.

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو
الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره وأسباب رضاه بأسباب
سخطه، فإذا غير، غير عليه، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد، فإن غير المعصية
بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا
بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَالٍ﴾ الرعد.

وفي بعض الآثار الإلهية، عن الرب تبارك وتعال أنه قال: (وعزتي وجلالي
لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب، ثم ينتقل عنه إلى ما أكره، إلا انتقلت له مما
يحب إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب
إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب).
ولقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها	فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد	فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت	فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى	لتصبر آثار من قد ظلم

فتلك مساكنهم بعدهم شهود عليهم، ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر من الظلم وهو الذي قد قصم⁽¹⁾
فكم تركوا من جنان ومن قصور، وأخرى عليهم أطم⁽²⁾
صلوا⁽³⁾ بالجحيم وفات النعيم وكان الذي نالهم كالحلم

فصل (22): المعاصي تلقى الرعب والخوف في القلوب

يزيد التقي ذا الحسن حسناً وبهجة وأما المعاصي فهي للحسن تسلب
وتكسب نور الوجه بعد بهائه وتكسوه قبحاً ثم للقلب تقلب
ومن عقوباتها: ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي
فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً، فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من
الأمين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل
جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أماناً، ومن عصاه انقلبت مآمنه
مخاوف، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الباب قال:
جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب، يحسب أن كل
صيحة عليه، وكل مكروه قاصداً إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم
يخف الله أخافه من كل شيء.

بذا قضى الله بين الناس مذ خلفوا أن المخاوف والإجرام في قرن
فإن كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

ومن عقوباتها: أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد المذنب نفسه
مستوحشاً، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبين الخلق وبين نفسه، وكلما كثرت
الذنوب اشتدت الوحشة، وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش
عيش المستأنسين، فلو نظر العاقل ووازن لذة المعصية وما توقعه من الخوف

(1) قصم: من قاصمة الظهر، أي أنه يضعف القوة.

(2) أطم: أشدوا فظع.

(3) صلوا: احترقوا.

والوحشة لعلم سوء وعظيم غبنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية ومرارتها وما توجه من الخوف والضرر الداعي له، كما قيل.

وسر المسألة أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلمما اشتد القرب قوى الأنس، والمعصية توجب البعد من الرب، وكلمما ازداد البعد قويت الوحشة ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابساً له قريباً منه، ويجد أنساً وقرباً بينه وبين من يحب، وإن كان بعيداً عنه، والوحشة سببها الحجاب، وكلمما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر، ولا تجد أحداً وملابساً شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابس منه، فتعلو الوحشة وجهه وقلبه، فيستوحش ويستوحش منه.

فصل (23): المعاصي تمرض القلوب وبمرضه يشقى العبد ولا يسعد

ومن عقوبتها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضاً معلولاً لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان بل الذنوب أمراض القلوب ودأؤها، ولا دواء لها إلا تركها، وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى منها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب دأؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها، فهوها مرضها، وشفائها مخالفتها، فإن استحكم المرض قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيماً ألبته، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي

حَجِيمِ ﴿٢٣﴾ الانفطار. مقصور على نعيم الآخرة وجعيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة - الثلاثة هم كذلك - أعنى دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار - فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبه؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتغنيص والتأكيد عليه، وأنواع «من العذاب في هذه» المعارضات فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظرة ما يعمل الهوان والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه، واشتياقاً إليه، وارتياحاً بحبه، وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه، واطرباه، ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال، إنهم لفي عيش طيب، ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وماذا قوا لذيق العيش فيها، وماذا قوا أطيب ما فيها، ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين.

فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها، وثمرتها جنة المأوى، والسفير الذي

جرى على يديه عقد التبائع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ، وقد بعثها بغاية الهوان، كما قال القائل:

كيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المكانين تنزل
إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذاله من بعد ذلك يكرم؟
﴿وَمَنْ يُنِ اللّٰهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ الحج.

فصل (24): المعاصي تعمي البصيرة

ومن عقوباتها: أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل⁽¹⁾ إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب، ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلاً القبر ظلمة، كما قال النبي ﷺ: «إن هذه القبور ممثلة على أهلها ظلمة، وإن الله منورها بصلاتي عليهم» فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد، حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة⁽²⁾ فيا لها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن؟ إنما هو ساعة من حلم! فالله المستعان.

(1) المخايل: الإمارات، واحدها مخيلة.

(2) الحممة: بفتحات: الفحم.

فصل (25): المعاصي تصغر النفوس

ومن عقوباتها: أنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها وتحقرها حتى تكون أصغر من كل شيء وأحقره كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ الشمس، والمعنى: قد افلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله. وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ النحل، فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلف من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه عند الله، وانقطع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره الله تعالى وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف والنمو، فما صغر مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

فصل (26): العاصي في سجن الشيطان

لا يأمن الدهر إلا الخائن البصر من ليس يعقل ما يأتي وما يذر ما يجهل الرشد من خاف الآله ومن أمسى وهمته في دينه الفكر ومن عقوباتها: أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسره أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟ وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده، ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات، وفي الحديث: «الشيطان ذئب الإنسان» وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فدثبه مفترسه ولا بدّ، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى، فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذنبه، كما هي وقاية

بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعي كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم، وهي ابعد من الراعي. وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات، والبعد من الله مراتب، بعضها اشد من بعض فالغفلة تبعد القلب عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.

فصل (27): المعاصي تسقط الكرامة

قال الشيخ حفصي عبد الرحمان في قصيدة، زهو أهل الوقت:

الله الله أيها خليلي ولدي من فعل هذا الجيل
ومن عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإن أكرم الخلق عند الله اتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق، وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش: حامل الذكر، ساقط القدر، زرى الحال، لا حرمة له، ولا فرح له ولا سرور، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن، ولا سرور معه ولا فرح، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة؟

ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره، ويعلي قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ﴿١١﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿١٢﴾ ص. أي خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأل به إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿١٣﴾ الشعراء، وقال سبحانه وتعالى

عنه وعن نبيه ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ مريم، وقال
لنبيه ﷺ: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ الشرح، فإتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب
مراتبهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكل من خالفهم فإنه يعيد من ذلك بحسب
مخالفتهم ومعصيتهم.

فصل (28): المعاصي مجلبة للذم

خَفِيَ اللَّهُ وانظر في صحيفتك التي حَوَتْ كلما قدمته من فَعَالِكَا
فقد خط فيها الكتابان فأكثرنا ولم يبق إلا أن يقولوا فذلكا
ووالله ما تدري إذا ما لقيتها أتوضع في يمينك أو في شمالكا
ولا تحسبن المرء يبقى مخلدا فما الناس إلا هالك فايك هالكا
ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسره أسماء
الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمتقي، والمطيع، والمنيب،
والوالي، والصالح، والعابد، والخائف، والأواب، والطيب، والمرضي ونحوها،
وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث،
والمسخوط، والزاني، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللوطي، وقاطع
الرحم، والغادر وأمثالها، فهذه أسماء الفسوق و ﴿ يَنْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيْمَنِ ﴾
الحجرات. الذي يوجب غضب الديان، ودخول النيران، وعيش الخزي والهوان،
وتلك أسماء توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وتوجب شرف المسمى بها
على سائر نوع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء
وموجباتها لكان في العقل ناه عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك
الأسماء وموجباتها لكان في العقل أمر بها، ولكن لا مانع لما أعطى، ولا معطي لنا
منع، ولا مقرب لما باعد، ولا مبعد لمن قرب ﴿ وَمَنْ يُنِ اللّٰهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ ۖ إِنَّ اللّٰهَ
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ الحج.

فصل (29): المعاصي تؤثر في العقل

قال الشيخ حفصي عبد الرحمان في قصيدة، زهو أهل الوقت

ولا تكن ممن إذا ما نكبا في ماله حس بها وغضبا
يبدي التأسف ومنه يكثر وإن تكن في دينه لا يشعر
فذا دليل مطموس البصيره مصيبة في وقتنا كثيره
ومن عقوباتها: أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل، فلا تجد عاقلين
أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح،
ورأيه أسدى، والصواب قرينه، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولى العقول
والألباب كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ البقرة، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي
الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾
البقرة، ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعصي من هو في قبضته وفي داره، وهو
يعلم أنه يراه ويشاهده؟ فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه، ويستغني بنعمه على
مساخطه، ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له، وإبعاده من قربه، وطرده عن
بابه، وإعراضه عنه وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه،
وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه والفوز بجواره، والنظر إلى وجهه في
زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة، وأضعاف أضعاف
ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأي عقل لمن أثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن،
على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم، بل هو سعادة الدنيا والآخرة، ولولا العقل
الذي تقوم به عليه حجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد تكون المجانين أحسن حالا
منه وأسلم عاقبة، فهذا من هذا الوجه.

وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيش فلولا الاشتراك في هذا النقصان

لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا، ولكن الجائحة عامة والجنون فنون.

ويا عجباً لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما في رضا من النعيم كله في رضاه، والألم والعذاب كله في سخطه وغضبه، ففي رضاه قرة العين، وسرور النفوس، وحياة القلوب، ولذة الأرواح، وطيب الحياة، ولذة العيش، وأطيب النعيم، ما ووزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرضى بالدنيا وما فيها عوضاً منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات، بل قد حصل على النعيمين وقد ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ^ط وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ النساء، فلا إله إلا الله، ما أنقص عقل من باع الدر بالبر، والمسك بالرجيع، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً.

فصل (30): المعاصي توجب القطيعة بين العبد والرب

وكم قائل ياحسرتا ليت أننا نرد إلى الدنيا ننيب ونرهب

ومن أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عليه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر، فأى فلاح، وأى رجاء، وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذي لا غنى عنه طرفة عين ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له، فتولاه عدوه، وتخلي عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما في هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان فإن

أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان، وقد قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٣١﴾﴾ الكهف، يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتي كلهم أن يسجدوا له تكريماً له وتكريفاً، فأطاعوني وأبى عدوي وعدوه، فعصى أمري، وخرج عن طاعتي، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دوني، فتطيعونه في معصيتي، وتولونه في خلاف مرضاتي، وهم أعدى عدو لكم؟ فواليتم عدوي وقد أمرتم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداءه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعادة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالي أعداء الملك ثم تدعي أنك موال له فهذا محال وهذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التي بينكم وبينه أعظم من العداوة التي بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالي عدوه وعدو وليه ومولاه الذي لا مولى له سواه؟ ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ كما نبه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فتبين أن عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بئس للظالمين بدلاً.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أنني عاديت إبليس إذا لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعادة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة.

فصل (31): المعاصي تمحق البركة

عليك نفسك فتش عن معائبها وخل من عثرات الناس للناس
ومن عقوباتها: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودينه ممن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الأعراف، وقال تعالى: ﴿وَالْوِاسْتَفْنُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ۖ لَنُفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ الجن، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه.

وفي الحديث «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله واجملوا في الطلب، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته، وإن الله جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد «أنا الله، إذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد». وليست سعة الرزق والعمل بكثرتة، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه.

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فطره ومحبتة وعبادته وحده، والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ولو تعوض عنه بما تعوض مما في الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة، فمن كل شيء يفوت العبد عوض، وإذا فاته الله لم يعوض عنه شيء ألبته، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات، والعاجز بالذات عن القادر بالذات والميت عن الحي الذي لا يموت، والمخلوق عن الخالق، ومن لا وجود له ولا شيء له من ذاته ألبته عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السماوات والأرض؟

وإنما كانت معصية الله سبحانه لمحق بركة الرزق والأجل، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها، فسلطانه عليهم، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقه، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع، لما في مقارنة اسم الله من البركة، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة، ولا معارض له، وكل شيء لا يكون الله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذي يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك، فكلامه مبارك، ورسوله مبارك وعبداه المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه وهي الشام أرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه، فلا مبارك إلا هو وحده ولا مبارك إلا ما نسب إليه، أعني إلى ألوهيته ومحبته ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه، ولا خير فيه وكل ما كان قريباً من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه.

و ضد البركة اللعنة، فأرض لعنها الله، أو شخص لعنه الله، أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبته، وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله به، فمن ههنا كان للعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل، وكل وقت عصيت الله فيه، أو مال عصى الله به، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه، ليس له، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم.

وفي الترمذي عنه ﷺ «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله ﷻ وما ولاه، وعالم أو متعلم». وفي أثر آخر «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله» فهذا

هو الذي فيه البركة خاصة، والله المستعان.

فصل (32): المعاصي تجعل صاحبها في السفلة

شر الناس من يعيب الناس مشتغلاً مثل الذباب يُراعي موضع العلل ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السفلى بعد أن كان مهيباً لأن يكون من العلية، فإن الله خلق خلقه قسمين، عليّة وسفلة، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلى في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العزة لهؤلاء والذلة والصغار لهؤلاء، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري» فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلى.

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مئة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم، وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب، ومما بين السماء والأرض، فلا يفي صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب».

فأي صعود يوازي هذه المنزلة؟ والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى عقله، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى

درجته، أو إلى أرفع منها بحسب يقطته.

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوي به الاستعانة على الطاعة، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان، وقد يكون أضعف همة، وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية، إما صغيرة أو كبيرة، فهذا قد يحتاج في عودة إلى توبة نصوح، وإنابة صادقة.

واختلف الناس: هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب وتجعل وجوده كعدمه، فكأنه لم يكن، أولاً يعود، بناء على أن التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها.

قالوا: وتقرير ذلك أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر، وارتقاء تحمله أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجال كل يوم بجملة ماله الذي يملكه، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع وربح بجملة أعماله، فإذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول، وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل إلى أعلى، وبينهما بون عظيم.

قالوا: ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان في شملين لا نهاية لهما، وهما سواء، فنزل أحدهما إلى أسفل، ولو درجة واحدة، ثم استأنف الصعود، فإن الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد.

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بين الطائفتين حكماً مقبولاً، فقال: مثل درجته، ومنهم من لا يصل إلى درجته.

قلت⁽¹⁾ وهذا بحسب قوة التوبة، وكمالها، وما أحدثته المعصية

(1) القول لابن القيم رحمه الله.

للعبد من الذل والخضوع والإنابة، والحدز والخوف من الله، والبكاء من خشية الله، فقد تقوى هذه الأمور، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة، فإنها نفت عنه داء العجب، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله، ووضعت خد ضراسته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه، وعرفته قدره، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له، وإلى عفوه عنه ومغفرته له، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة، وكسرت أنفه أن يشمخ أو يتكبر بها، أو يرى نفسه بها خيراً من غيره، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين، ناكس الرأس بين يدي ربه، مستجيباً منه خائفاً وجلاً، محتقراً لطاعته، مستعظماً لمعصيته، قد عرف نفسه بالنقص والذم، وربّه متفرد بالكمال والحمد والوفاء .

أي نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه، ورأى نفسه دونها، ولم يرى أهلاً، وأي نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها ورأى مولاه قد أحسن إليه إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره، ولا أدنى جزء منه، فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات فضلاً عن هذا العبد الضعيف العاجز، فإن الذنب وإن صغر فإن مقابلة العظيم الذي لا شيء أعظم منه، الكبير الذي لا شيء أكبر منه، الجليل الذي لا أجل منه ولا أجمل المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجليها - من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها، فإن مقابلة العظماء الأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالردائل، فكيف بعظيم السماوات والأرض، وملك السماوات والأرض، وإله السماوات والأرض؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته، لكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق بمقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السماوات والأرض من معاصي العباد، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ۚ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ

بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٠﴾ فاطر

فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما "الحليم والغفور" كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السماوات والأرض؟

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه ﴿تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ⁽¹⁾ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿١١﴾﴾ مريم.

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه، وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السماوات والأرض بذنب واحد ارتكبه، وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقى كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب، ونرتجي درج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا ما أخرج الأبوين من ملكوته الأعلى بذنب واحد
والمقصود: أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تضمنت الخطيئة همته وتوهن عزمه، وتمرض قلبه، فلا يقوى دواء التوبة إعادته إلى الصحة الأولى، فلا يعود إلى درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله فيعود إلى درجته.

هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية، فإن كان نزوله إلى أمر يقدر في أصل إيمانه، مثل الشكوك والريب والنفاق، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه.

فصل (33): المعاصي تجرئ على الإنسان اعداءه

إنني بليت بأربع ما سلطوا إلا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي

(1) يتفطرن: يتشققن.

ومن عقوباتها: أنها تجترئ على العبد من لم يكن يجترئ عليه أصناف المخلوقات فتجترئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين وإنسائه ما به مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه إلى معصية الله أزا⁽¹⁾ وتجترئ عليه شياطين الأنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه خدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم.

قال بعض السلف: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي، وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وتجترئ عليه نفسه فتأسد عليه وتستضعف عليه، فلو أرادها لخير تطاوعه ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أم أبى، وذلك أن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي من دخله كان من الآمنين، فإذا فارق الحصن اجتراً عليه قطاع الطريق وغيرهم، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه، وليس له شيء يرد عنه، فإن ذكر الله وطاعته، والصدقة، وإرشاد الجاهل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وقاية ترد عن العبد، بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه فإذا اسقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك، فلا بد للعبد من شيء يرد عنه، فإن موجب السيئات والحسنات كان الرد أقوى كما تقدم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، والإيمان قول وعمل، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع والله المستعان،

فصل (34): المعاصي تدفع العبد نحو نفسه

يا منفق العمر في حرص وفي طمع	إلى متى قد تولى وانقض العمر
إلى متى ذا التماذي في الضلال أما	تنشيك موعظة لو ينفع الذكر
بأدر متاباً عسى ما كان من زلل	وما اقترفت من الأثام يغتفر

(1) يؤزه أزا: تدفعه دفعاً شديداً.

ومن عقوباتها: أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل، وأقواهم وأكيسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره، وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم، فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاوة، وأرشدهم من أثر هذه على هذه، كما أن أسفهم من عكس الأمر، والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم، وإيثار الحظ الأشرف العالي الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين، فإذا وقع مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذبته، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه، فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به، كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثقلاً بالمرض، فإذا احتاج إلى محاربة العدو ولم يجد معه منه شيء والعبد إنما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند مالكة قوة بها فما الظن بها؟

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف، أعني النفس المطمئنة، وإن كانت الأمانة تقوى وتتأسد، وكلما قويت هذه ضعفت تلك؟ فيبقى الحكم والتصرف للإمارة، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لا يرتجي معه حياة، فهذا ميت في الدنيا، ميت في البرزخ، غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط.

والمقصود: إن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة إليه والجمعية عليه، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكر بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فينجس القلب على اللسان بحيث يؤثر

الذكر، ولا ينجس القلب واللسان على المذكور، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاه ساه غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي، كمن له جنديد فعون عنه الأعداء، فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

هذا، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة، كما شاهد الناس كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل «لا إله إلا الله» فقال: آه آه، لا أستطيع أن أقولها، وقيل لآخر: قل «لا إله إلا الله» فقال: شاه، رخ⁽¹⁾، غلبتك ثم قضى، وقيل لآخر: قل «لا إله إلا الله» فقال:

يارب قائله يوماً، وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجباب؟

ثم قضى، وقيل لآخر: قل «لا إله إلا الله» فجعل يهذي بالغناء، ويقول تاننا تنتنا، حتى قضى، وقيل لآخر ذلك فقال: ما ينفعني ما تقول، ولم أدع معصية إلا ركبته، ثم قضى ولم يقلها، وقيل لآخر ذلك، فقال وما يغني عني وما أعرف أنني صليت لله صلاة؟ ولم يقلها، وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول، وقضى، وقيل لآخر ذلك، فقال: كما أردت أن أقولها ولساني يمسك عنها، وأخبرني من حضر بعض الشحاذين⁽²⁾ عند موته، فجعل يقول: لله فلس، لله، فلس لله، حتى قضى، وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه «لا إله إلا الله» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشتري جيد، هذه كدا، حتى قضى.

وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبراً؟ والذي يخفي عليهم من أحوال

(1) شاه، ورخ: اسمان لحجرين من أحجار الشطرنج، لأنه كان في حياته مفتوناً بلعبة.

(2) الذي أخبر هو الإمام، الشحاذين: في المنجد في اللغة والإعلام: الشحاذ، جمع شحاذة وشحاذون: المتسول أي المستعطي وهو مستعار من شحذ السكين أو لأنه قد شحذ الناس بنظره أو حدده إليهم.

المحتضرين أعظم وأعظم، فإذا كان العبد في حال حضور دهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره، وجواره عن طاعته، فكيف الظن به عن سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزاع؟ وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم عن ذلك، فهناك ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٣٤﴾ إبراهيم.

فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتباع هواه وكان أمره فرطاً؟ فبعيد من قلبه من الله تعالى غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشغول بمعصيته، أن يوفق للخاتمة بالحسنى.

وقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالأمان ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنُ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ سَلِّمُوا لَهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٣٦﴾ القلم. كما قيل:

يا أماناً مع قبح الفعل منه أهل	أتاك توقيع أمن أنت تملكه
جمعت شيئين: أماناً واتباع هوى	هذا وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد	ساروا، وذلك درب لست تسلكه
فرطت في الزرع وقت البذر من سفه	فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شيء فيك زهدك في	دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفه إذأ بالله؟ أنت، أم	المغبون في البيع غبناً سوف تدركه

فصل (35): المعاصي تعمي القلب

قال صاحب الهلالية:

واعلم بأن أکدر الذنوب يكشف نور العلم في القلوب
ألا ترى الذبال في المصباح إذا صفى أرضاك في اصطباح
ومن عقوباتها: أنها تعمي القلب، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد، وقد
تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد، فإذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته
على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوته.

فإن الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره
عليه، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت
منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله
تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ص،
فالأيدي: القوة في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك
الحق وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف
الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى.

القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة
على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون
وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيّقون الديار، ويغلون الأسعار ولا
يستفاد بصحبتهن إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، ولكنه ضعيف لا قوة
له على تنفيذه، ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن
القوي خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في
الدين يكاد يميز بين أولياء الرحمة وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء
تمرّة، وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحماً، والدواء النافع سماً.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سواء القسم الأول، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِأَيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ السجدة، فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الأئمة في الدين وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر - الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين - على أن من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ العصر، ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضاً به، ويرشده إليه، ويحضه عليه.

وإذا كان من عدا هؤلاء خاسراً، فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصير عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك سيره فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً، والمعرفة منكراً والمنكر معروفاً فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة، التي رضيت بالحياة الدنيا، واطمأنت لها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها والبعد منها والله المستعان، وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجלוه وتصلقه، وتقويه وتثبتته، حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نوراً، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعاً، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فتقال: أصابه إنسي، وبه نظره من الأنس.

فيا نظرة من قلب حر منور يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها فأنت قرين لي بكل مكان
 فإن كنت في دار الشقاء فإنني وأنت جميعاً في شقاء وهوان
 أفيستوي هذا القلب وقلب مظلمة أرجاؤه، مختلفة أهواؤه، قد اتخذه
 الشيطان وطنه وأعدّه مسكنه، إذا أصبح بطلعته حياه، وقال: فديت من قرين لا يفلح
 في دنياه ولا في آخره؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ⁽¹⁾ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ
 قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ
 يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۝ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ
 فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝﴾ الزخرف.

فأخبر سبحانه أنه من عشي عن ذكره، وهو كتابه الذي أنزله على رسوله،
 فأعرض عنه، وعمي عنه، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه،
 قىض الله له شيطاناً، عقوبة له بإعراضه عن كتابه، فهو قرينه الذي لا يفارقه في
 الإقامة ولا في السير، ومولاه وعشيرته الذي هم بئس المولى وبئس العشيرة.
 بأسحح داج عوض لا يتفرق رضيعاً لبان ثدي أم تقاسما
 ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى
 جنته، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى حتى إذا جاء القرينان يوم
 القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين كنت
 لي في الدنيا، أضللتني عن الهدى بعد إذ جاءني، وصددني عن الحق وأغويتني،
 حتى هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيئته حصل له بالتأسي نوع
 تخفيف وتسلية، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق
 المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه

(1) يعيش: - بفتح الياء وسكون العين وضم الشين - فلا يبصر والمراد عمى البصيرة.

وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرت الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي، ولكن أعوض النفس عنه بالتأسي
فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ
الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿١﴾.

فصل (36): المعاصي عدو لدود

الأكل حي هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين غريق
إذا امتحن الدنيا لبیب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
ومن عقوباتها: أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه، وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، ولا ينام عنه، ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيلة من حيث لا يراه يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمراً يكيد به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه، ويستعين عليه بيني جنسه من شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الأنس: فقد نصب له الجبائل، وبغى له الغوائل، ومدد حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعدائه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظهم الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن تكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذا فاتتنا شركة صالحهم في الجنة، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا، وأمرنا أن نأخذ له أهبته، ونعد له عدته.

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد أبلوا بهذا العدو وأنه قد سلط عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر، التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها، "واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون،

في سبيل الله، فيقتلون ويقتلون"، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، وأخبر أنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلي نظر إلى المشتري من هو؟ وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأى فوز أعظم من هذا؟ وأي تجارة أربح منه؟

ثم أكد سبحانه هذا الأمر بقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرَ عَلَىٰ تَحِيْرَةٍ تُنْجِيْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ اَلِيْمٍ ۝۱۱ تُوْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَتُجَاهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ بِاَمْوَالِكُمْ وَاَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ۝۱۲ يَغْفِرْ لَكُمْ دُنُوْبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِيْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ ۝۱۳ وَاُخْرٰى تَحِبُّوْنَهَا ۝۱۴ نَصْرٌ مِّنَ اللّٰهِ وَفَتْحٌ قَرِيْبٌ ۝۱۵ وَنَبِيْرٌ اَلْمُؤْمِنِيْنَ ۝۱۶﴾ الصف، ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب أنواع المخلوقات إليه، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم إليه وسيلة، فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقات، وهو القلب الذي هو محل معرفته، ومحبه، وعبوديته، والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، فولاه أمر هذا الحرب، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوْنَهُ مِّنْ أَمْرِ اللّٰهِ﴾ الرعد، يعقب بعضهم بعضاً، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر، يثبتونه، ويأمرونه بالخير، ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأبد.

ثم أمدّه سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه، فأرسل إليه رسوله ﷺ، وأنزل إليه كتابه، فازداد قوة إلى قوته، ومدداً إلى مدده، وعدة إلى عدته، وأيده مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له، وبالإيمان مثبتاً له ومؤيداً وناصراً، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أوليائه وحزبه على جهاد أعدائه، فالعقل يدبر أمر جيشه، والمعرفة تصنع له أمور

الحرب وأسبابها ومواقعها اللاتقة بها، والإيمان يثبتته ويقويه ويصبره، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمد سبحانه القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة، فجعل العين طليعته، والأذن صاحب خبره، واللسان ترجمانه، واليدين والرجلين أعوانه، وأقام ملائكته وحمله عرشه يستغفرون له، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه، وقال: هؤلاء حزبي وحزب الله هم المفلحون، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة، وهؤلاء جندي: ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَلِيُونَ﴾ الصافات.

وعلم سبحانه عباده كيفية هذا الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران، ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو، وهي مقاومته ومنازلته فإذا صابر عدوه إحتاج إلى أمر آخر وهو المراقبة، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمراقبة لزوم هذه الثغور، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خالياً فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المراقبة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر.

فانظر الآن فيك إلى التقاء الجيشين، واصطدام العسكرين، وكيف تدال مرة

ويدال عليك مرة أخرى؟ أقبل ملك الكفر وعساكره، فوجد القلب في حصنه جالساً على كرسي مملكته، أمره نافذاً في أعوانه، وجنده قد حفوا به، يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته، فلم يمكنه الهجوم عليه إلا بمخابرة⁽¹⁾ بعض أمرائه وجنده عليه، فسأله عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة، فقليل له: هي النفس، فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها، وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها، فعدوها به، ومنوها إياه، وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها، فإذا أطمئنت إليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطايفها، ثم جروها بها إليكم، فإذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغور العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل، فرابطوا على هذه الثغور كل المراقبة، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتل أو أسير، أو جريح مثخن بالجراحات، ولا تخلو هذه الثغور، ولا تمكنوا سرية تدخل فيها إلى القلب فتخرجكم منها، وإن غلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها، حتى لا تصل إلى القلب، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئاً، فإذا استوليت على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتباراً، بل أجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً وتلهياً، فإن استرق نظرة عبثاً فأسدوها عليه بنظرة الغفلة والاستحسان والشهوة، فإنه أقرب إليه، وأعلق بنفسه، وأخف عليه، ودونكم ثغر العين، فإن منه تنالون بغيتكم، فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة، ثم أسقيه بماء الأمانة، ثم لا أزال أعدّه وأمنيه حتى أقوي عزيمته، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من المعصية، فلا تهملوا أمر هذا الثغر، وأفسدوه بحسب استطاعتكم، وهونوا عليه أمره، وقولوا له: مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق، والتأمل لبدیع صنيعه، وحسن هذه الصورة التي إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه، وما خلق الله لك العينين سدى، وما خلق هذه الصورة ليحجبها عن النظر، وإن ظفرت به قليل العلم فاسد العقل، فقولوا له: هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاله، فادعوه إلى القول بالاتحاد،

(1) المخابرة: الغش والمخادعة ممن تظنه معك.

فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام أو الخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك، فإنه يصير به من إخوان النصارى، فمروه حينئذ بالعفة والصيانة، والعبادة والزهد في الدنيا، واصطادوا عليه وبه الجهال، فهذا من أكبر خلفائي وأكبر جندي، بل أنا من جنده وأعوانه.

فصل (37): ثغر الأذن

إلى الله تب قبل انقضا زمن العمر أخي ولا تأمن مساورة الدهر
لقد حدثتك الحادثات نزولها ونا دتك إلا أن سمعك ذو وقر
تنوح وتبكي إلى الأحبة إذا مضوا ونفسك لا تبكي وأنت على الأثر
ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس تستحليه وتستحسنه، تخير له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب، وامزجوه بما تهوى النفس مزجاً، فألقوا الكلمة، فإن رأيتم منهم إصغاء إليها فزجوه بأخواتها، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فاهجوا له بذكره، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكير فيه والعظة به، إما بإدخال ضده عليه، وإما بتحويل ذلك وتعظيمه، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه، وهو حمل يثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك، وإما بإرخاصه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أغلى عند الناس، وأعز عليهم، وأعزب عندهم، وزبونه القائلون له أكثر، وأما الحق فهو مهجور، وقائله معرض نفسه للعداوة، والرابع بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك، فتدخلون الباطل عليه بكل قالب يقبله ويخف عليه، وتخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه، وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفصول، وتتبع عشرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيف، وإلقاء الفتن بين الناس، ونحو ذلك، ويخرجون أتباع السنة وصف الرب تعالى بما وصف به نفسه

ووصفه به رسوله ﷺ في قالب التجسيم والتشبيه والتكليف، ويسمون علو الله على خلقه واستوائه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزاً، ويسمون نزوله إلى سماء الدنيا وقوله: (من يسألني فأعطيه) تحركاً وانتقالاً، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث، وما يقوم به من صفاته أعراضاً، ثم يتوصلون إلى نفي ما وصف به نفسه بنفي هذه الأمور، ويوهمون الاغمار⁽¹⁾ وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تستلزم هذه الأمور، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظه، ويردونه بعينه يلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الأنعام، فسماه زخرفاً وهو باطل، لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور، فيغتر به.

والمقصود: أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه.

فصل (38): ثغر اللسان

إذا لم توافق قولة منك فعلة ففي كل جزء من حديثك تفضح تنح عن الغابات لست من أهلها طريق الهوينا في سلوكك أوضح إذا كنت في سن النهى غير صالح ففي أي سن بعد ذلك تصلح ثم يقول: قوموا على ثغر اللسان، فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه، من ذكر الله تعالى، واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، والتكلم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم: أحدهما: التكلم بالباطل، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر

(1) الاغمار، جمع غمر: السريع الانخداع، ومن لا تجربة له.

جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت على الحق، فإن الساكت على الحق أخ لكم أحرص، كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم، أما سمعتم قول الناصح «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أحرص».

فالرباط الرباط على هذين الثغرين يتكلم بحق أو يمسك عن الباطل وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق واعلموا يابني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم وأكبههم منه على مناخرهم في النار فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر؟

وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعواناً على الإنس بكل طريق، وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصد، أما سمعتم قسمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ

بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۝ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝﴾ الأعراف، أو ما تروني قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها، فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له بطريق غيره، حتى أصيب منه حاجتي أو بعضها؟ وقد حذرهم ذلك رسول الله ﷺ وقال لهم: «إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطريقه كلها، قعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه وأسلم، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وخالفه وهجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة؟» فهكذا فأقعدوا لهم بكل طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فأقعدوا له على طريق الصدقة وقولوا له في نفسه: أخرج المال فتبقى مثل هذا السائل، وتصير بمنزلته أنت سواء؟ أو ما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سألته آخر أن يتصدق عليه، فقال: هي أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم، وأقعدوا له بطريق الحج، فقولوا: طريقه مخوفة مشقة،

يتعرض سالكها لتلف النفس والمال، وهكذا فأقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتهما، ثم أقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسنوها في أعين ابن آدم، وزينوها في قلوبهم، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم العون هن لكم.

ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشي فيه، وأعلموا أن أكثر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة، فأعينوها واستعينوا بها، وأمدوها واستمدوا منها، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها، فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة، وإن طاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه، واعزلوه عن مملكته، وولوا مكانه النفس الأمارة، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه، ولا تجيئكم بما تكرهونه ألبته، مع أنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها، بل إذا أشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته، وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح، فزينوها وجملوها، وأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد، وقولوا له: ذق طعم هذا الوصال، والتمتع بهذه العروس، كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب، ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة، فدع الحرب تضع أوزارها، فليست بيوم وتنقضي، وإنما هو حرب متصل بالموت، وقواك تضعف عن حرب دائم.

واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما: أحدهما: جند الغفلة، فأغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق، فليس لكم شيء أبلغ في تحصيل غرضكم من ذلك، فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكث منه ومن إغوائه.

والثاني: جند الشهوات، فزينوها في قلوبهم، وحسنوها في أعينهم، ووصولوا عليهم بهذين العسكرين، فليس لكم من بني آدم أبلغ منهما، واستعينوا على الغفلة

بالشهوات، وعلى الشهوات بالغفلة واقرنوا بين الغافلين، ثم استعينوا بهما على الذكر، ولا يغلب واحد خمسة، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة وشيطان الذكر معهم، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم، من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه، ولم تقدروا على تفريقهم - فاستعينوا عليهم بني جنسهم من الأنس البطالين، فقربوهم منهم، وشوشوا عليهم بهم، وبالجمله فأعدوا الأمور أقرانها، وأدخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته، فساعده عليها، وكونوا أعواناً له على تحصيلها، وإذا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم، ويصابروكم، ويرابطوا عليكم الثغور، فاصبروا أنتم وصابروا وربطوا عليهم بالثغور، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب، فلا تصطادون بني آدم في أعظم من هذين الوطنين.

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور، فخذوا عليه طريق الشهوة، ودعوا طريق الغضب ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب، فلا تخلوا طريق الشهوة قلبه، ولا تعطوا ثغرها فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فإنه بالحري أن لا يملك نفسه عند الشهوة، فزوجوا بين غضبه وشهوته، وامزجوا أحدهما بالآخر، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب، وإلى الغضب من طريق الشهوة. واعلموا انه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب، فيه قطعت أرحامهم وسفكت دماؤهم، وبه قتل أحد بني آدم أخاه.

واعلموا أن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، والشهوة نار تثور من قلبه، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير، فإياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة، فإن ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة، وقد أمرهم نبيهم بذلك، فقال: «إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم من احمرار عينيه، وانتفاخ أوداجه؟ فمن أحس بذلك فليتوضأ». وقال لهم:

«إنما تطفأ النار بالماء» وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة، فحولوا بينهم وبين ذلك، وانسوهم إياه، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاهها: الغفلة، وإتباع الهوى، وأعظم أسلحتهم فيكم وأمنع حصونهم: ذكر الله، ومخالفة الهوى، فإذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظله، ولا تدنوا منه.

والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه، ويعينهم بها على نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم على نفسه، وهذا غاية الجهل.

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه ومن العجب أن العبد يسعى بجهد في هوان نفسه، وهو يزعم أنه لها مكرم، ويجهتد في حرمانها أعلى حظوظها وأشرفها، وهو يزعم أنه يسعى في حفظها، ويبدل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدسيثها، وهو يزعم أنه يعليها ويرفعها ويكبرها.

وكان بعض السلف يقول في خطبته: أَلَا رَبُّ مَهِينٍ لِنَفْسِهِ وهو يزعم أنه لها مكرم، ومُذَلٌّ لِنَفْسِهِ وهو يزعم أنه لها معزٍ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحفظها؟ وكفى بالمرء جهلاً أن يكون عدواً على نفسه، يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ منه عدوه، والله المستعان.

فصل (39): المعصية تنسي العبد نفسه

ومن عقوباتها: أنها تنسي العبد نفسه؟ وإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها فإن قيل: كيف نسي العبد نفسه؟ وإذا نسي نفسه فأَيُّ شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟ قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان: قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾ الحشر. فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ التوبة، فعاقب

سبحانه من نسيه عقوبتين، إحداهما: أنه سبحانه نسيه، والثانية: أنه أنساه نفسه، ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للقم، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به، ينسيه ذلك جميعه، فلا يُخطره بباله ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتهما، فلا يخطر بباله إزالتها، وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، مرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها، ونسى مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حفظها من الله، وباعوها رخيصة بثمان بخس بيع الغبن، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي أتجر فيها لمعاده، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لأخرته.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الريح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها، ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلاً بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائباً بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم، ويقول أحدهم: خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به.

فكيف أبيع حاضراً نقداً مشاهداً في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى

وأما الرابحون فإنهم باعوا فانياً بيباق، وخسيساً بنفيس، وحقيقاً بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها؟ فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم، لا نسبة له إلى دار القرار ألبته، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ يونس، وقال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ﴾ ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴾ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَا ﴾ ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ حَشَشَهَا ﴾ ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾ ﴿ النازعات، وقال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ۚ بَلَّغْ ۚ الْأَحْقَافَ، وقال تعالى: ﴿ قُلْ لَّكُمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَعَلَ الْعَادِينَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ المومنون، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۚ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ ﴿ طه.

فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة، فلما عملوا قلة لبشهم فيها، وأن لهم داراً غير هذه الدار، هي دار الحيوان ودار البقاء - رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء، فاتجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من

الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه، وكل أحد في هذه الدنيا بائع غير مشتر متجر، وكل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها ﴿ إِنَّا اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَتِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ التوبة.

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة، فتاجروا أيها المفلسون، ويا من لا يقدر على هذا الثمن ها هنا ثمن آخر، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن ﴿ التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْإِكْبَارُونَ الْكُفُّونَ السَّاجِدُونَ الَّامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة، ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُمْ عَلَىٰ تَحْتَرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الصف.

والمقصود: أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الربحية، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة والله المستعان.

فصل (40): المعاصي تزيل النعم

ومن عقوبتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فأن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة: سبباً يجلبه، وآفة تبطله، فجعل أسباب نعمه الجالية لها طاعته، وآفات المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها.

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره وسماعاً لما غاب

عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصية الله، كأنه مستثنى من هذه الجملة أو مخصوص من هذا المعلوم، وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه، وواصل إلى الخلق لا إليه، فأى جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلي الكبير.

فصل (41): المعصية تباعد بين العبد والملك الموكل به

إذا مرضنا نويّنة كل صالحة وإن شفينّا فمنا الزبغ والزلزل
نرضى الإله إذا خفنا ونسخطه إذا أمنا فما يزكو لنا عمل
ومن عقوباتها: أنها تباعد عن العبد وليه، وأنفع الخلق له، وأنصحهم، ومن سعادته في قربه منه: وهو الملك الموكل به، وتدني منه عدوه، وأغش الخلق له، وأعظمهم ضرراً له، وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وفي بعض الآثار «إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً من نتن ريحه» فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك، وأفحش منه؟ وقال بعض السلف: إذا ركب الذكر الذكر عجب الأرض إلى الله، وهربت الملائكة إلى ربها، وشكت إليه عظيم ما رأت.

وقال بعض السلف: إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشيطان، فإذا ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه، وإذا ففتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان.

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، ففتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فصلت، وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم، فثبته وعلمه، وقرى جنانه، وأيده،

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيُّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الأنفال، فيقول له الملك عند الموت: «لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك» ويثبت بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة.

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته، وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، يحارب عنه عدوه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعدده بالخير ويشره به، ويحثه على التصديق بالحق، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعاً: «إن للملك بقلب ابن آدم لمة⁽¹⁾ وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق».

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد، وإذا بعد منه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه، وألقى عليه قول الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان.

وفي الحديث «إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي الله عنه» وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الملك، ويسمع ضدها فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان، فالملك يلقي بالقلب الحق، ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب، ويجريه على اللسان.

فمن عقوبة المعاصي: أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربهِ ومجاورته وموالاته، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربهِ وموالاته، حتى إن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه، كما

(1) اللمة بفتح اللام: من ألم به نزل به نزولاً خفيفاً، ومعناه الخطرة على القلب.

اختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر، وهو ساكت، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه، فقام النبي ﷺ، فقال: «يارسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت، فقال: كان الملك ينافح عنك، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس» وإذا دعا العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمن الملك على دعائه وقال «لك بمثله» وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة على دعائه، وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله، وإذا نام على وضوء بات في شعاره⁽¹⁾ ملك، فملك المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه، ويعلمه ويثبته ويشجعه، فلا يليق به أن يسيء جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده، فإنه ضيفه وجاره، وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟ وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه، وقال «لا جزاك الله خيراً» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان، قال بعض الصحابة ؓ «إن معكم من لا يفارقكم، فاستحبوا منهم وأكرمواهم».

ولا أَلَأَمَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْكَرِيمِ الْعَظِيمِ الْقَدْرَ، وَلَا يَجْلَهُ وَلَا يُوقِرُهُ، وَقَدْ نَبِهَ سَبْحَانَهُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كَرَامًا كَاتِبِينَ ۖ يَكْتُبُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۖ﴾ الانفطار، أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرمواهم، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان.

فصل (42): المعاصي مجلبة الهلاك

هذا الزمان الذي كنا نحاذره في قول كعب وفي قول ابن مسعود

(1) الشعار: ما يلي الجسم من الثياب.

دهر به الحق مردود بأجمعه والظلم والبغي فيه غير مردود
 إن دام هذا ولم يحصل له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمولود
 ومن عقوباتها: أنها تستجلب مواد هلاك العبد من دنياه وآخرته، فإن
 الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بدّ، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً
 إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاق الرديئة التي متى
 غلبت عليه أفسدته، وحمية يمتنع بها مما يؤذيه ويخشى ضرره، فكذلك القلب لا
 تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة
 النصوص تستفرغ بها المواد الفاسدة والأخلاق الرديئة منه، وحمية توجب له حفظ
 الصحة وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة، والتقوى:
 اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوى بقدره، وإذا تبين هذا
 فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة، فإنها تستجلب المواد المؤذية، وتوجب
 التخليط المضاد للحمية: وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوص، فانظر إلى بدن عليل قد
 تراكمت عليه الأخلاق ومواد المرض، وهو لا يستفرغها، ولا يحتمى لها، كيف
 تكون صحته وبقاؤه، ولقد أحسن القائل:

جسمك بالحمية حصنته مخافة من ألم طارى
 وكان أولى بك أن تحتمي من المعاصي خشية البارى
 فمن حفظ القوة بامثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناّب النواهي
 واستفرغ التخليط بالتوبة النصوص، لم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً، والله
 المستعان.

فصل (43): العقوبات الشرعية على المعاصي

فإن لم تردعك هذه العقوبات، ولم تجد لها تأثيراً في قلبك، فأحضره
 العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله عن الجرائم، كما قطع اليد في سرقة
 ثلاث دراهم، وقطع اليد والرجل في قطع الطريق على معصوم المال والنفس، وشق
 الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن، أو قطرة خمر يدخلها جوفه، وقتل

بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الإحصان بمائة جلدة وينفى سنة عن وطنه وبلده إلى الغربة، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات رحم محرم منه، أو ترك الصلاة المفروضة، أو تكلم بكلمة كفر، وأمر بقتل من وطئ ذكراً مثله، وقتل المفعول به، وأمر بقتل من أتى بهيمة، وقتل البهيمة معه، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة، وغير ذلك من العقوبات التي رتبها على الجرائم، وجعلها بحكمته على حسب الدواعي إلى تلك الجرائم، وحسب الوازع عنها، فما كان الوازع عنه طبيعياً وليس في الطباع داع إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزير، ولم يرتب عليه أحداً، كأكل الرجيع، وشرب الدم، وأكل الميتة، وما كان في الطباع داع إليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته، وبقدر داع الطبع إليه، ولهذا لما كان داعي الطباع إلى الزنى من أقوى الدواعي كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع زيادة التغريب، ولما كانت جريمة اللواط فيها الأمان كان حده القتل بكل حال، ولما كان داعي السرقة قوياً ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد.

وتأمل حكمته في إفساد العضو الذي باشر العبد به الجنائية، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به، إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجنائية ولا يبلغها، فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد.

فإن قيل: فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية؟!

قيل، لوجوه:

أحدهما: أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجنائية، إذ فيه قطع النسل وتعريضه للهلاك.

الثاني: أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناة، بخلاف قطع اليد.

الثالث: أنه إذا قطع يده أبقى له يداً أخرى تعوض عنها، بخلاف الفرج.
 الرابع: أن لذة الزنى عمت جميع البدن، فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه⁽¹⁾.
 فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل، وأقومها بالمصلحة.

و المقصود: أن الذنوب إنما تترتب عليها العقوبات الشرعية أو القدرية أو يجمعهما الله للعبد، وقد يرفعهما عن تاب وأحسن.

فصل (44): عقوبات الذنوب شرعية وقدرية

خف الله في ظلم الورى واحذرنه وخف يوم عض الظالمين على اليد
 ولا تحسبن الله عن ذاك غافلا ولكنه يملئ لمن شا إلى الغد
 فلا تغتررب بالحلم عن ظلم ظالم سيأخذه أخذا وبيلا وعن يد
 وعقوبات الذنوب نوعان: شرعية، وقدرية، فإذا أقيمت الشرعية رفعت
 العقوبات القدرية أو خففتها، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العبد بين العقوبتين
 إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب، ولم يكف زوال دائه، وإذا عطلت
 العقوبات الشرعية استحالت قدرية، وربما كانت اشد من الشرعية، وربما كانت
 دونها، ولكنها تعم، والشرعية تخص، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعاً إلا
 من باشر الجناية أو تسبب إليها.

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة، فإن المعصية إذا خفيت لم
 تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة، وإذا رأى الناس المنكر
 فاشتكوا في ترك إنكاره أو شك أن يُعمم الله بعقابه.

وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب
 وتقاضي الطبع لها، وجعلها الله سبحانه ثلاثة أنواع القتل، والقطع، والجلد، وجعل

(1) البضعة: بفتح الباء - هي القطعة من اللحم، أي جزء منه، والمراد الفرج.

القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه وهو الزنى واللواط، فإن هذا يفسد الأديان وهذا يفسد الأنساب، ونوع الإنسان.

قال الإمام أحمد «لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى» واحتج بحديث عبد الله بن مسعود انه قال: «يارسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: قلت: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك» فأنزل الله تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الفرقان، والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطلق جوابه سؤال السائل، فإنه سأل عن أعظم الذنب، فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها وما هو أعظم كل نوع. فأعظم أنواع الشرك: أن يجعل العبد لله نداً.

وأعظم أنواع القتل: أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه. وأعظم أنواع الزنى: أن يزني بحليلة جاره، فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف من انتهكه من الحق، فالزنى بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لا زوج لها، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه، وتعليق نسب عليه لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه: فهو أعظم إثماً وجرمًا من الزنى يغير ذات البعل، فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار، فإن كان زوجها جار له أنضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى وذلك من أعظم البوائق⁽¹⁾.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأة الجار، فإن كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه أنضم إلى ذلك قطيعة الرحم، فيتضاعف الإثم، فإن كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف له الإثم، حتى أن الزاني بامرأة الغاзи في سبيل الله

(1) أي الغوائل والشُرور، واحداها بائقة، وهي المهلكة.

يوقف له يوم القيامة ويقال: خذ من حسناته ما شئت، قال النبي ﷺ «فما ظنكم» أي ما ظنكم أنه يترك له من الحسنات قد حَكَمَ في أن يأخذ منها ما شاء؟ على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه؟ فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه أنضاف إلى ذلك قطيعة رحمها، فإن اتفق أن يكون الزاني محصناً كان الإثم أعظم، فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً، وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام، أو بلد حرام، أو وقت معظّم عند الله كأوقات الصلاة وأوقات إجابة تضاغف الإثم، وعلى هذا فاعتبر مفاصد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة، والله المستعان.

فصل (45): القطع بإزاء فساد الأموال

قال في أسهل المسالك

إن اخرج الشخص الذي قد كلفا من حرزه ما ربع دينار وفي سرّاً بلا شبهة ملك فاقطعوا يمينه فإن يعد فاتبعوا برجله اليسرى فإن قد عادا يسرى يديه أقطع فإن تمادى فرجله اليمنى فإن عادا سجن له مع الضرب الشديد الموهن واتبعه في اليسرى بما فيه انقطع ومطلقاً مع غير قطع يتبع واقطع يد الذمى والمعاهد والعبد في مال لغير السيد وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذي يمكن الاحتراز منه، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه، لأنه يأخذ الأموال في اختفاء، وينقب الدور، ويتسور من غير الأبواب، فهو كالسّئور والحية التي تدخل عليك من حيث لا تعلم، فلم ترتفع مفسدة سرقة إلى القتل، ولا تندفع بالجلد، فأحسن ما دفعته به مفسدته إبانة العضو⁽¹⁾ الذي يتسلط به على الجناية، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول، وتمزيق

(1) إبانة العضو: قطعه وفصله من سائر الأعضاء.

الأعراض بالقذف.

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع: العتق، وهو أعلاها، والإطعام، والصيام. ثم إنه سبحانه جعل الذنوب ثلاثة أقسام:

قسماً فيه الحد، فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء الحد.

قسماً لم يترتب عليه حد، فشرع فيه الكفارة، كالوُطء في نهار رمضان والوُطء في الإحرام، والظهار، وقتل الخطأ، والحنث في اليمين، وغير ذلك. قسماً لم يترتب عليه حد ولا كفارة، وهو نوعان:

أحدهما: ما كان الوازع عنه طبيعياً، كأكل العذرة، وشرب البول والدم.

والثاني: ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد، كالنظر والقُبلة واللمس والمحادثة، وسرقة فلس، ونحو ذلك.

وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع:

أحدها: ما كان مباح الأصل، ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم، كالوطء في الإحرام والصيام، وطرده: الوطء في الحيض والنفاس، بخلاف الوطء في الدبر، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح، فإنه لا يباح في وقت دون وقت، فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر.

النوع الثاني: ما عقد الله من نذر أو بالله من يمين، أو حرمة الله ثم أراد حله، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة سماها تَحْلَةً وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث، كما ظنه بعض الفقهاء، فإن الحنث قد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً، وقد يكون مباحاً، وإنما الكفارة حلٌّ لما عقده.

النوع الثالث: ما تكون فيه جابرة لما فات، ككفارة قتل الخطأ، وإن لم تكن هناك إثم، وكفارة قتل الصيد خطأ، فإن ذلك من باب الجوابر، والنوع الأول من باب الزواجر، والنوع الثاني من باب التحلة لما منعه العقد.

ولا يجتمع الحد والتعزير في معصية، بل إن كان فيها حد اكتفى به، وإلا اكتفى بالتعزير ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية، بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها، وما فيه كفارة فلا حد فيه، وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها؟ فيه وجهان، وهذا كالوطء في الإحرام والصيام، ووطء الحائض، إذا أوجبنا فيه الكفارة، فقل: يجب التعزير، لما انتهك من الحرمة بركوب الجنابة، وقل: لا تعزير في ذلك، اكتفاء بالكفارة، لأنها جابرة وماحية.

فصل (46): في العقوبات القدرية

ليس السعيد الذي دنياه تسعده إن السعيد الذي ينجو من النار وأما العقوبات القدرية فهي نوعان: نوع على القلوب والنفوس، ونوع على الأبدان والأموال.

والتي على القلوب نوعان، أحدهما: آلام وجودية يضرب بها القلب، والثاني: قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه، وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها، وعقوبة القلوب أشد العقوبتين، وهي أصل عقوبة الأبدان.

وهذه العقوبة تقوى وتزايد، حتى تسرى من القلب إلى البدن، كما يسري ألم البدن إلى القلب، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها، فظهرت القلب حينئذ وصار علانية ظاهرة، وهي المسماة بعذاب القبر ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار.

فصل (47): العقوبات القدرية على الأبدان

والتي على الأبدان أيضاً نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة، وشدها ودوامها بحسب مفاسد ما رتبت عليه في الشدة والخفة فليس في الدنيا والآخرة شر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها، فالشر اسم لذلك كله، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيز منها في خطبته بقوله (ونعوذ بالله من شرور نفوسنا، ومن سيئات أعمالنا) وسيئات الأعمال: من شرور النفس، فعاد كله إلى شر النفس، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته.

وقد اختلف في معنى قوله: (ومن سيئات أعمالنا) هل معناه السيئ من أعمالنا، فيكون من باب إضافة الفرع إلى جنسه؟ أو تكون من بيانية، وقيل: معناه من عقوباتها التي تسوء، فيكون التقرير: ومن عقوبات أعمالنا التي تسوؤنا، ويرجح هذا القول: أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر فإن شرور النفس تستلزم الأعمال السيئة وهي تستلزم العقوبات السيئة فبه شرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها منه إذ هو أصله، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه، فهو السيئات التي تسوء العبد عن عمله، من العقوبات والآلام، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفرعه وغايته ومقتضاه، ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ غافر، فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيئ وقاهم جزء السيئ، وإن كان قوله: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ.

فإن قيل: فقد سأله سبحانه أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها: الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ، ولا يراد على هذا قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم، وهي سيئات في أنفسها.

قيل: وقاية السيئات نوعان: أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه، والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الطلبية.

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه، وسعة رحمته، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم

وأَسبابها وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوهم وأنفسهم، وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم، إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لا بد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيد ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأَشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته، فتابوا مما يكره، واتبعوا السبيل التي يحبها، ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين - من أصولهم وفروعهم وأزواجهم - جنات عدن التي وعدهم بها، وهو سبحانه وإن كان لا يخلف الميعاد، فإنه وعدهم بها بأسباب، ومن جملتها: دعاء ملائكة لهم إن يدخلهم إياها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها، وأقاما ملائكته يدعون لهم بها، ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: «إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى ما شاء ويأمر وينهى، ويشب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر.

والمقصود: أن عقوبات السيئات تنوع إلى عقوبات شرعية، وعقوبات قدرية، وهي إما في القلب، وإما في البدن، وإما فيهما، وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم حشر الأجساد، فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة، ولكن جهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة، لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحس بالألم، فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، الإغتراق على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها، وقد تقارن المضرة الذنب، وقد تتأخر عنه، إما يسيرا وإما مدة كما يتأخر المرض عن سببه أو يقارنه،

وكثيراً ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيب، ولا يدري انه يعمل عمله على التدريج شيئاً فشيئاً، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القُذَّة بالقُذَّة⁽¹⁾ فإن تدرك العبد بالأدوية والأستفراغ والحمية، وإلا فهو صائر إلى الهلاك، هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على كل يوم وكل ساعة؟ والله المستعان.

فصل (48): بعض عقوبات المعاصي

تخير قرينا من فعالك إنما يزين الفتى في القبر ما كان يفعل
فإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن بغير الذي يرضى به الله تشغل
فلا بد بعد القبر من أن تعده ليوم ينادي المرء فيه فيسأل
فلن يصحب الإنسان من بعد موته ولا قبله إلا الذي كان يعمل
إلا إنما الإنسان ضيف لأهله يقيم قليلا عندهم ثم يرحل
فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب،
وجوز وصول بعضها إليك، واجعل ذلك داعياً للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق لك
منها طرفاً يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

فمنها: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والإقفال
على القلوب وجعل الأكنة⁽²⁾ عليها والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار،
والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عند ذكر الرب، وإنساء الإنسان نفسه
وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء،
وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضاً على مرضها، وإركاسها وإنكاسها،
بحيث تبقى مكنوسة كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ؓ أنه قال:

(1) القُذَّة: واحدة ريش السهم، أي كما تقدر كل واحدة منها على قدر صاحبها، يضرب مثلاً
للشئيين يستويان ولا يتفاوتان.

(2) الأكنة: الأعطية.

«القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يُزهر⁽¹⁾ فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف⁽²⁾ فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، وقلب تمدد مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما».

ومنها التنشيط عن الطاعة، والاقعاد عنها.

ومنها: جعل القلب أصم لا يسمع الحق، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿الحج، وليس المراد نفى العمى الحسى عن البصر، كيف وقد قال تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ النور، وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ ﴿عبس، وإنما المراد أن العمى التام في الحقيقة عمى القلب، حتى إن البصر بالنسبة إليه كالأعمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبي ﷺ «ليس الشديد بالصرعة»⁽³⁾ ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب» وقوله ﷺ «ليس المسكين بالطواف الذي تزده اللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيتصدق عليه» ونظائره كثيرة.

والمقصود: أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم. ومنها: الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه: فيخسف به إلى أسفل

(1) أي ليس فيه غل ولا غش من أثر الجهل والغفلة، فهو على أصل الفطرة السلمية ونور الإيمان فيه مشرق.

(2) أي مغطى بالأهواء والجهل والتقليد والشهوات، قد أغلق عليه، فلا يستمع لداعي الحق، ولا يستيقظ بآيات الله ومواعظه.

(3) بضم الصاد وفتح الراء: المبالغ في قوة المصارعة الذي لا يغلب.

السافلين، وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به: أنه لا يزال جوّالاً حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوّالاً حول العرش.

ومنها: البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق، قال بعض السلف «إن هذه القلوب جوالّة، فمنها ما يجول حول العرش ومنها ما يجول حول العُشّ».

ومنها: مسخ القلب، فيمسخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك، وهذا تاويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ الأنعام، قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوّس في ثيابه كما يتطوّس الطاووس، ومنهم من يكون بليداً كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمّام، ومنهم الحقود كالجمال ومنهم الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب إلى تروغ كروغانها، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي بالحمير تارة وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوى هذه المشبهة باطنا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً، يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد، ولا يزال يقوى حتى تستشنع الصورة، فتقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التام، فيقلب الله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر؟ وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به، وكم من مفتون ببناء الناس عليه؟ ومغرور يستر الله عليه ومستدرج بنعم الله عليه؟ وكل هذه عقوبات وإهانات، ويظن الجاهل أنها كرامة. ومنها: مكر الله بالماكر، ومخادعته للمخادع، واستهزاؤه بالمستهزئ،

وإزاغته القلب الزائغ عن الحق. ومنها: نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، ويفسد ويرى أنه يصلح، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها، ويشترى الضلالة بالهدى، وهو يرى أنه على الهدى، ويتبع هواه، وهو يزعم أنه مطيع لمولاه، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب.

ومنها: حجاب القلب عن الرب في الدنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة، كما قال الله تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ١٤٠ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُوبُونَ ١٤١ المطففين، فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها، وما يفسدها ويشقيها وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته وتقر به عيناً وتطيب به نفساً، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم، وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم.

ومنها: المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ١٤٢ طه، وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الأعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة يحسب أعراضه وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة وأن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر فإنه يضيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله

الذي أنزله على رسول الله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم مياعده ولا تقرر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ومن لم تقرر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا والحياة الطيبة والحسنة يوم القيامة فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ النحل، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِيَ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ هود، ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، وهو النعيم على الحقيقة ولا نسبة لنعيم البدن إليه فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقال آخر إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة فمن دخلها دخل تلك الجنة ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر» وقال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة».

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ الانفطار، مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تبارك وتعالى والعمل على موافقته؟ وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليفه ﷺ بسلامة قلبه فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الصافات، وقال حاكياً عنه أنه قال: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء، والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل إرادة تُزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة البرزخ. وفي جنة يوم المعاد. ولا تتم له سلامة مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وعفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراداً لا تنحصر، ولذلك اشتدت حاجة العبد، بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالاً وتروكا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد لا تريده، كسلاً وتهاوناً، أو لقيام مانع وغير ذلك، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم فيه بشرط الإخلاص وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه

بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه، وهذا كله واقع سار في الخلق، فمستقل ومستكثر، وليس في طباع العبد وكل الهداية إلى ذلك، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك كله، وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم، الرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره، ونهيه وأمره، فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بفضلته ورحمته، وجعله الهداية حيث تصلح، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إليه، فهو على صراط مستقيم.

ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً إليه حجة منه وعدلاً، وهدى من شاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلاً، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه، فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إلى جنته، ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا، وأقام عليه من أقامه عليه في الدنيا، وجعل نور المؤمنين به ورسوله وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه، كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه، وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه، كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا، وأقام أعمال العصاة بجنبتي الصراط كالليب وحسكاً⁽¹⁾ تخطفهم كما خطفتهم في الدنيا عن الاستقامة عليه، وجعل قوة سيرهم وسرعتهم عليه على قدر قوة سيرهم وسرعتهم إليه في الدنيا، ونصب للمؤمنين حوضاً يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا، وحرّم من الشرب منه هالك من حرم من الشرب من شرعه ودينه هاهنا.

فانظر إلى الآخرة كأنها رأي عين، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين

(1) الكلايب: جمع كلاب أو كلوب، وهو حديدة معقوفة الرأس يجربها، والحسك، بفتح الحاء والسين المهملتين - الشوك.

تعلم حيثئذ علماً يقيناً لا شك فيه، أن الدنيا مزرعة الآخرة، وعنوانها ونموذجها، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدهما، وبالله التوفيق.

فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة.

فصل (49): أصل الذنوب

كيف الرحيل بلا زاد إلى وطن ما ينفع المرء فيه غير تقواه
من لم يكن زاده التقوى فليس له يوم القيامة عذر عند مولاه
ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في
الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها.

ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلاً وجيزاً جامعاً فنقول:

أصلها نوعان: ترك مأمور، وفعل محذور، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح، وباطن في القلوب، وباعتبار متعلقة إلى حق الله، وحق خلقه، وإن كان كل حق لخلقفه فهو متضمن لحقه، لكن سمي حقاً للخلق لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم.

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام: ملكية وشيطانية وسبعية وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

فالذنوب الملكية: أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية، كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلو، واستعباد الخلق ونحو ذلك، ويدخل في هذا الشرك بالله تعالى، وهو نوعان: شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه، وشرك به في معاملته، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار، وإن أحيط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في

خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه في ربوبيته وملكه، وجعل له نداً، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

فصل (50): الذنوب الشيطانية

وأما الشيطانية: فالتشبه بالشیطان في الحسد، والبغي، والغش، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله، وتحسينها، والنهي عن طاعته، وتهجينها⁽¹⁾ والإبتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال، وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

فصل (51): الذنوب السبعية

قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وأما السبعية: فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، يتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني، والجرأة على الظلم والعدوان.

وأما الذنوب البهيمية: فمثل الشره، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنها يتولد الزنى والسرقه، وأكل أموال اليتامى، والبخل والشح والجبن والهلع والجزع وغير ذلك

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرحهم إليها بالزمام، فيدخلون إلى الذنوب السبعية ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية، والشرك في الوجدانية ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله وربوبيته.

(1) تهجين الشيء: تقييحه.

فصل (52): الذنوب كبائر وصغائر

تخير قرينا من فعالك إنما يزين الفتى في القبر ما كان يفعل
 فإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن بغير الذي يرضى به الله تشغل
 فلا بد بعد القبر من أن تعده ليوم ينادي المرء فيه فيسأل
 وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن
 من الذنوب كبائر وصغائر، قال الله تعالى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
 عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ النساء، وقال تعالى ﴿الَّذِينَ تَجْتَنِبُونَ
 كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعَمَ﴾ النجم.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة،
 ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات:

أحداها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها،
 والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر، ولا ترتقي إلى التكفير شيء من الكبائر

الثالثة: أن تقوم على تكفير الصغائر، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعد الكبائر،
 فتأمل هذا، فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة.

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا
 رسول الله، فقال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور».

وفي الصحيحين عنه ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا
 رسول الله؟ قال: الإشراك، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال
 اليتيم، وأكل الربا، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وفي الصحيحين عنه ﷺ: «أنه سأل: أي الذنب أكبر قال: أن تدعو الله نداً
 وهو خلقكم، قيل: ثم أي قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: ثم أي؟

قال: أن تزاني بحليلة جارك» فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الفرقان.

واختلف الناس في الكبائر، هل لها عدد يحصرها؟ على قولين:

ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا في عددها، فقال عبد الله بن مسعود:

هي أربع، وقال عبد الله بن عمر هي سبع، وقال عبد الله بن عمرو بن العاصي هي تسعة، وقال غيره هي إحدى عشرة، وقال آخر: هي سبعون.

وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب، وهي: الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وأربعة في اللسان: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر، وثلاث في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، واثنان في الفرج، وهما: الزنى، واللواط، واثنان في اليدين وهما: القتل، والسرقة، وواحد في الرجلين، وهو الفرار من الزحف، وواحد يتعلق بجميع الجسد، وهو عقوق الوالدين.

والذين لم يحصروها بعدد، منهم من قال: كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة.

وقالت طائفة: ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء من ذلك فهو صغيرة.

وقيل: كل ما يرتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لم يرتب عليه لا هذا وهذا فهو صغيرة وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة. وقيل: كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة، وقيل: كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله ﴿إِنْ لَجَّتَنِوْا كِبَآئِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ تُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ النساء.

و الذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها - بالنسبة إلى

الجرأة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره - كبائر، فالنظر إلى من عصى أمره، وانتهاك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة، قالوا: ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته، ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنب.

قالوا: ويدل عليه أن مفسدة الذنوب إنما هي تابعة للجرأة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى، وهذا لو شرب رجل خمراً أو وطئ فرجاً حراماً، وهو لا يعتقد تحريمه، لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان آتياً بإحدى المفسدتين، وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول: فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجرأة والتوثب.

قالوا: ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمة، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب.

قالوا: فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه، وعظمته، وانتهاك حرمة بالمعصية، وهذا لا يفترق فيه الحال بين معصية ومعصية، فإن ملكاً مطاعاً عظيماً لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب في مهم له إلى بلد بعيد، وأمر آخر أن يذهب في شغل له إلى جانب الدار، فعصياه وخالفاً أمره، لكانا في مقتله والسقوط من عينه سواء.

قالوا: ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة ومن ترك الجمعة وهو جار المسجد أقبح عند الله من معصية من ترك من المكان البعيد والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا، ولو كان مع رجل مائتا درهم ومنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف ألف فمنع زكاتها لاستويا في منع ما وجب على كل واحد منهما، ولا يبعد استواءهما في العقوبة إذا كان كل منهما مصراً على منع زكاة ماله، قليلاً كان المال أو كثيراً.

فصل (53): الحق في المسألة

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال:

إن الله ﷻ أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله لله، والطاعة كلها له، والدعوة له كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الحجر، وقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿٥٢﴾ الطلاق، وقال تعالى ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْتَيْدَ^(١) ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٣﴾ المائدة.

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر: أن يعرف بأسمائه وصفاته، ويعبد وحده ولا يشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، كما قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد.

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات.

فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر تفاصيله تعرف به حكمة أحكم

(١) القلائد: جمع قلادة من تقليد الهدى، وهو أن يعلق بعنق البعير قطعة من جلد ليعلم أنه هدي فيكيف الناس عنه.

الحاكمين، وأعلم العاملين، فيما فرضه على عباده، وحرمه عليهم، وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي.

فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرم الله الجنة على كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيداً لهم، لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعاة، أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقلل له فيها عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله، حيث جعل له من خلقه نداً، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه، وإنما ظلم نفسه.

فصل (54): حِكْمُ تُحَذِّرُ مِنَ الْمَعَاصِي

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خصلتان لا أفضل منهما: الإيمان بالله والنفع للمسلمين، وخصلتان لا أخبث منهما: الشرك بالله والضرر بالمسلمين»⁽¹⁾

عن علي كرم الله وجهه: من كان في طلب العلم كانت الجنة في طلبه ومن كان في طلب المعصية كانت النار في طلبه، وعن يحيى بن معاذ: ما عصى الله كريم وما أثر الدنيا على الأخرى حكيم، وعن سفيان الثوري: كل معصية عن شهوة فإنه يرجى غفرانها وكل عن الكبر فإنه لا يرجى غفرانها، لأن معصية إبليس كان أصلها من الكبر فيما زلة آدم كان أصلها من الشهوة، وعن بعض الزهاد: من أذنب ذنباً وهو يضحك فإن الله يدخله النار وهو يبكي، ومن أطاع وهو يبكي فإن الله يدخله الجنة وهو يضحك، وعن بعض الحكماء، لا تحقروا الذنوب الصغار فإنها تتشعب منها الذنوب الكبار⁽²⁾ وعن النبي ﷺ: «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»⁽³⁾

وقال بعضهم:

(1) رواه ابن حجر العسقلاني في كتاب: الاستعداد ليوم المعاد.

(2) نفس المصدر، والحكم التي قبلها.

(3) نفس المصدر السابق.

خَلَّ الذَّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَزْ ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنْ الْجِبَالُ مِنَ الْحَصَى
وَقَالَ بَعْضُهُمْ

كُلُّ الْمَصَائِبِ مَبْدَأُهَا مِنَ النَّظَرِ وَمَعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرِّ
وَالْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يَقْلِبُهَا فِي أَعْيُنِ الْغَيْدِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ
كَمْ نَظْرَةً فَعَلَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا فَعَلَ السَّهَامُ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرٍ
يَسِرُّ مَقْلَتَهُ مَا ضَرَّ مَهْجَتَهُ لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ جَاءَ بِالضَّرَرِ
قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ: مَنْ انْفَقَ عَافِيَتَهُ وَصَحَّتْهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى: فَمَثَلُهُ كَمَنْ
خَلَّفَ لَهُ أَبَوْهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَاشْتَرَى بِهَا حَيَاتٍ وَعُقَارِبَ، وَجَعَلَهَا مِنْ حَوْلِهِ: تَلَدَّغَهُ
هَذِهِ مَرَّةً! وَتَلَسَّعَهُ هَذِهِ أُخْرَى! أَمَّا تَقْتَلُهُ؟

وَقَالَ أَيْضًا: «إِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ! فَقَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِتَوَقُّفِ الرِّزْقِ» ⁽¹⁾ رَوَى عَنْ
سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمَحْقَرَاتِ الذَّنُوبِ! فَإِنَّمَا مِثْلُ
مَحْقَرَاتِ الذَّنُوبِ، كَمِثْلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِطْنٍ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعْدٍ، وَجَاءَ ذَا بَعْدٍ، حَتَّى
حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خَبْزَهُمْ، وَإِنْ مَحْقَرَاتِ الذَّنُوبِ مَتَى يَأْخُذُ بِهَا صَاحِبُهَا
تَهْلِكُ» ⁽²⁾.

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قَالَ:
الْبُرُّ هُوَ اللِّسَانُ، وَالْبَحْرُ هُوَ الْقَلْبُ، فَإِذَا فَسَدَ اللِّسَانُ بَكَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ، وَإِذَا فَسَدَ
الْقَلْبُ بَكَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ.

وَقِيلَ: إِنْ الشَّهْوَةُ تَصِيرُ الْمُلُوكَ عِبِيدًا، وَالصَّبْرُ يَصِيرُ الْعَبِيدَ مُلُوكًا. . أَلَا تَرَى
إِلَى قِصَّةِ يُوسُفَ وَزَلِيلِخَا.



(1) مِنْ سَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْأَسْتَاذِ: مُحَمَّدِ الْحِجَارِ.

(2) قَالَ فِي كِتَابِ سَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

وقيل: كمن ترك الذنوب رق قلبه، ومن ترك الحرام وأكل الحلال صفت فكرته، أوحى الله إلى بعض الأنبياء: أطعني فيما أمرتك ولا تعصني فيما نصحتك قال النبي ﷺ: «أصل جميع الخطايا حب الدنيا، وأصل جميع الفتن منع العشر والزكاة» ذكره ابن حجر في كتاب الاستعداد ليوم المعاد والحكم التي قبله. وعن عثمان ؓ: من ترك الدنيا أحبه الله تعالى، ومن ترك الذنوب أحبه الملائكة، ومن حسم الطمع عن المسلمين أحبه المسلمون.

وروي أن رجل من بني إسرائيل جمع ثمانين تابوتاً مع العلم ولم ينتفع بعلمه، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل لهذا الجامع لو جمعت كثيراً من العلم لم ينفعك إلا أن تعمل بثلاث أشياء: لا تحب الدنيا فليست بدار المؤمنين، ولا تصاحب الشيطان فليس برفيق المؤمنين، ولا تؤذي أحداً فليس بحرفة المؤمنين.

وعن أبي سليمان الداراني أنه قال في المناجاة: إلهي، لئن طالبتني بذنبي لأطلبنك بعفوك، ولئن طالبتني ببخلي لأطلبنك بسخائك، وإن أدخلتني النار لأخبرت أهل النار بأنني أحبك.

قيل أوحى الله تعالى إلى عزيز النبي فقال: يا عزيز، إذا أذنبت ذنباً صغيراً فلا تنظر إلى صغره وانظر إلى من الذي أذنبت له، وإذا أصابك خير يسير فلا تنظر إلى صغره وانظر إلى من الذي رزقك، وإذا أصابك بلية فلا تشكوني إلى خلقي كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت إلي مساويك⁽¹⁾.

وعن حاتم الأصم: ما من صباح إلا ويقول الشيطان لي ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟

فأقول له: آكل الموت، وألبس الكفن، واسكن القبر.

وعن النبي ﷺ قال:

«من خرج من ظل المعصية إلى عز الطاعة أغناه الله تعالى من غير مال، وأيده من غير جند، وأعزه من غير عشيرة».

(1) ذكره ابن حجر في الاستعداد ليوم المعاد.

أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء: من لقيني وهو يحبني أدخلته جنتي، ومن لقيني وهو يخافني جنبته ناري. ومن لقيني وهو يستحي مني أنسيت الحفظة ذنوبه.

وعن عبد الله بن مسعود: أدما افترض الله عليك تكن أعبد الناس واجتنب محارم الله تكن أزهد الناس، وأرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس.

قال ابن عطاء الله في لطائف المنن عن شيخه أبي العباس المرسى عن شيخه أبي الحسن الشاذلي: من لم يتغلغل في هذه العلوم مات مصراً على الكبائر وهو لا يعلم.

وقال: وسمعت⁽¹⁾ يقول عن شيخه أبي الحسن عليه السلام: كل شيء نهاك الله عنه فهو شجرة آدم إلا أنه لما أكل من الشجرة نزل إلى الأرض للخلافة، وأنت إذا أكلت من شجرة النهى تنزل لماذا؟، إنما تنزل إلى أرض القطيعة.

قال أبو العباس المرسى⁽²⁾ عليه السلام:

أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية، والله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية.

فمن كان وقته الطاعة فسيبيله شهود المنة من الله تعالى إذ هداه لها ووفقه للقيام بها، ومن كان وقته المعصية فسيبيله الاستغفار والتوبة، ومن كان وقته النعمة، فسيبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله، ومن كان وقته البلية، فسيبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رضى النفس عن الشهوات، والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهم وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضاً لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر، والصبر ثبات القلب بين يدي الرب، قال رسول الله ﷺ: «من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظلم فغفر. وظلم فاستغفر». ثم سكت فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟ قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون». أي لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا.

(1) سمع شيخه أبي العباس المرسى عليه السلام.

(2) ذكره ابن عطاء الله السكندري في كتاب لطائف المنن.

ذكر أبو القاسم القشيري في رسالته: قال الجنيد: دخلت على السري فوجدته متغيراً فقلت: ما بالك يا أستاذ متغيراً؟ قال: دخل علي شاب آنفاً، فقال لي: ما التوبة؟ فقلت له: إن لا تنسى ذنبك، فقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فماذا تقول أنت يا أبا القاسم؟

قال: فقلت: القول عندي ما قال الشاب، لأنني إذا كنت في حال الجفاء ثم نقلني إلى حال الصفاء فذكر الجفاء وقت الصفاء جفاء.

قال أبو العباس المرسى رحمه الله في قول بعضهم: لا يكون الصوفي صوفياً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة.

ليس معنى ذلك أن لا يقع منه ذنب عشرين سنة ولكن معناه أنه إذا أذنب الذنب استغفر الله منه، والملك الموكل يكتب السيئات لا يكتب السيئة حتى ينتظر العبد خمس ساعات لعل أن يرجع أو يتوب، وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمن امكث لا تكتب فعسى أن يتوب إلى أن يبلغ ذلك العدد، فحينئذ يكتبها سيئة، فلذلك جاء صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال.

وعن حامد اللفاف رحمه الله أنه قال: أتاه رجل فقال له أوصني، فقال له: اجعل لدينك غلافاً كغلاف المصحف، قيل له: ما غلاف الدين؟ قال: ترك الكلام إلا ما لا بد منه وترك الدنيا إلا ما لا بد منه، وترك مخالطة الناس إلا ما لا بد منه، ثم اعلم أن أصل الزهد الاجتناب عن المحارم، كبيرها وصغيرها، وأداء جميع الفرائض، يسيرها وعسيرها، وترك الدنيا على أهلها، قليلها وكثيرها.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «يا أبا ذر، جدد السفينة فإن البحر عميق، وخذ الزاد كاملاً فإن السفر بعيد، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود، وأخلص العمل فإن الناقد بصير».

وقال الشاعر:

فرض على الناس أن يتوبوا ولكن ترك الذنوب أوجب
والبصر في النائبات صعب لكن فوت الثواب أصعب
والدهر في صرفه عجيب لكن غفلة الناس أعجب
وكل ما قد يجي قريب ولكن الموت من ذلك أقرب
وعن بعض الحكماء: أربعة قبيحة لكن أربعة منها أقبح، الذنب من الشاب
قبيح ومن الشيخ أقبح، والاشتغال بالدنيا من الجاهل قبيح ومن العالم أقبح،
والتكاسل في الطاعة من جميع الناس قبيح ومن العلماء والطلبة أقبح، والتكبر من
الأغنياء قبيح ومن الفقراء أقبح.

وقال عمر رضي الله عنه: البحور أربعة - الهوى بحر الذنوب والنفس بحر الشهوات،
والموت بحر الأعمال، والقبر بحر الندامات.

وعن عثمان رضي الله عنه قال: وجدت حلوة العبادة في أربعة أشياء - أولها في أداء
فرائض الله، والثاني في اجتناب محارم الله، والنهي والثالث في الأمر بالمعروف
ابتغاء ثواب الله، والرابع في النهي عن المنكر اتقاء غضب الله.

أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء من بني إسرائيل وقال: صمتك عن
الباطل لي صوم، وحفظك الجوارح عن المحارم لي صلاة، وإياسك عن الخلق لي
صدقة، وكفك الأذى عن المسلمين لي جهاد.

وعن حاتم الأصم رحمه الله أنه قال: من ادعى أربعة بلا أربعة فدعواه كذب
- من ادعى حب الله ولم ينته عن محارم الله فدعواه كذب ومن ادعى حب النبي
ﷺ وكره الفقراء والمساكين فدعواه كذب، ومن ادعى حب الجنة ولم يتصدق
فدعواه كذب، ومن ادعى خوف النار ولم ينته عن الذنوب فدعواه كذب.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «علامة الشقاوة أربعة: نسيان الذنوب الماضية وهي
عند الله محفوظة، وذكر الحسنات الماضية ولا يدري أقبلت أم ردت، ونظره إلى من
فوقه في الدنيا، ونظره إلى من دونه في الدين، يقول الله: أردته ولم يردني، فتركته،

وعلازمة السعادة أربعة: ذكر الذنوب الماضية، ونسيان الحسنات الماضية، ونظره إلى من فوقه في الدين، ونظره إلى من دونه في الدنيا».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أربعة من ظلمة القلب - بطن شبعة من غير مبالاة، وصحبة الظالمين، ونسيان الذنوب الماضية، وطول الأمل، وأربعة من نور القلب: بطن جائع من حذر، وصحبة الصالحين، وحفظ الذنوب الماضية، وقصر الأمل.

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأمهات أربع: أم الأدوية، وأم الآداب، وأم العبادات، وأم الأماني، فأم الأدوية قلة الأكل، وأم الآداب قلة الكلام، وأم العبادات قلة الذنوب، وأم الأماني الصبر»، ذكره ابن حجر في الاستعداد ليوم المعاد.

وعن سعد بن بلال رحمه الله: أن العبد إذا أذنب من الله تعالى عليه بأربع خصال: لا يحجب عنه الرزق، ولا يحجب عنه الصحة، ولا يظهر عليه الذنب، ولا يعاقبه عاجلاً.

قال الشاعر أبو نواس:

ذنوبي إن فكرت فيها كثيرة	ورحمة ربي من ذنوبي أوسع
وما طمعي في صالح إن عملته	ولكنني في رحمة الله أطمع
هو الله مولاي الذي هو خالقي	وإنني له عبد أقر وأخضع
فإن يكن غفران فذلك رحمة	وإن تكن الأخرى فما أنا أصنع

قال بعض الحكماء: من اشتغل بالشهوات فلا بد له من النساء، ومن اشتغل بجمع المال فلا بد من الحرام ومن اشتغل بالعبادة فلا بد له من العلم.

وعن يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله قال: من كثر شيعه كثر لحمه ومن كثر لحمه كثر شهوته، ومن كثر شهوته غرق في آفات الدنيا وزينتها.

قال محمد بن الدوري: شقي إبليس بخمسة أشياء، ولم يقر بالذنب، ولم يندم، ولم يلم نفسه، ولم يعزم على التوبة، وقطع من رحمة الله وسعد آدم بخمسة أشياء، أقر بالذنب، وندم عليه، ولام نفسه، وأسرع في التوبة، ولم يقنط من

رحمة الله.

وعن بعض العباد أنه قال في المناجاة: إلهي طول الأمل عزني، وحب الدنيا أهلكني، والشيطان أظلني، والنفس الأمارة بالسوء عن الحق منعني، وقرين السوء عن المعصية أعانني فأغثنني يا غياث المستغيثين فإن لم ترحمني فمن الذي يرحمني غيرك!!

قال النبي ﷺ: «سنة لعنتهم ولعنهم الله تعالى، وكل نبي مجاب الدعوة: الزائد في كتاب الله تعالى، والمكذب بقدر الله، والمتسلط بالجبروت ليعز من أذله الله ويذل من أعزه الله، والمستحل لحرمة الله تعالى، والمستحل من عترتي ما حرم الله، وتارك لستتي، فإن الله تعالى لا ينظر إليهم يوم القيامة نظر الرحمة». ذكره ابن حجر العسقلاني في الاستعداد ليوم المعاد.

قال أبو بكر الصديق: إن إبليس قائم أمامك، والنفس عن يمينك، والهوى عن يسارك، والدنيا عن خلفك، والأعضاء عن حولك، والجبار فوقك، فالإبليس لعنه الله يدعوك إلى ترك الدين، والنفس تدعوك إلى المعصية، والهوى يدعوك إلى الشهوة، والدنيا تدعوك إلى اختيارها على الآخرة، والأعضاء تدعوك إلى الذنوب، والجبار يدعوك إلى الجنة والمغفرة، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ فمن أجاب إبليس ذهب عنه الدين، ومن أجاب النفس ذهب عنه الروح، ومن أجاب الهوى ذهب عنه العقل، ومن أجاب الدنيا ذهب عنه الآخرة، ومن أجاب الأعضاء، ذهبت عنه الجنة، ومن أجاب الله تعالى ذهبت عنه السيئات ونال جميع الخيرات.

وسئل بعض الحكماء: هل يعرف العبد إذا تاب أن توبته قبلت أم ردت؟ قال: لا أحكم في ذلك، ولكن لذلك علامات، إحداها أن يرى نفسه معصومة من المعصية، ويرى في قلبه الفرح غائباً والحزن شاهداً، ويقرب أهل الخير ويباعد أهل الشر، ويرى القليل من الدنيا، كثيراً ويرى الكثير من عمل الآخرة قليلاً ويرى قلبه مشغلاً بما ضمن من الله تعالى فارغاً عما ضمن الله تعالى منه، ويكون حافظ للسان

دائم الفكرة لازم الغم والندامة، وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: من أعظم الاغترار عندي التماذي في الذنوب على الرجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله ﷻ مع الإفراط.

قال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس
قال النبي ﷺ: «سبعة لا ينظر إليهم الخالق يوم القيامة ولا يزيكهم ويدخلهم النار: الفاعل، والمفعول به، والناكح بيده، وناكح البهيمة، وناكح المرأة في دبرها، والجامع بين المرأة وابنتها والزاني بحليلة جاره، والمؤذي جاره حتى يلعنه». وقال ﷺ «أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران في التوراة أن أمهات الخطايا ثلاثة: الكبر، والحسد، والحرص، فنشأ منها ستة فصرن تسعة: الأولى من الستة الشبع، والنوم، والراحة وحب الأموال، وحب الثناء، والمحمدة، وحب الرياسة».

وقال عليه الصلاة والسلام: «عشرة من هذه الأمة هم كفار بالله العظيم ويظنون أنهم المؤمنون: القاتل بغير حق، والساحر، والديوث الذي لا يغار على أهله، ومانع الزكاة، وشارب الخمر، ومن وجب عليه الحج فلم يحج، والساعي في الفتن، وبائع السلاح من أهل الحرب، وناكح المرأة في دبرها، وناكح ذات رحم محرم إن عمل هذه الأفعال حلالاً فقد كفر»⁽¹⁾

رأى يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله، فقيها راغباً في الدنيا فقال: يا صاحب العلم والسُنَّة، قصورك قيصرية،⁽²⁾ وبيوتكم كسروية،⁽³⁾ ومساكنكم قارونية، وأبوابكم طالوتية، وثيابكم جالوتية،⁽⁴⁾ ومذاهبكم شيطانية، وضياعكم

(1) ذكره ابن حجر العسقلاني في: الاستعداد ليوم المعاد.

(2) قيصرية: نسبة إلى قيصر الروم، في ضخماتها وأبهتها دون اتعاض بعبرة الموت ولا تأثر بالزهد.

(3) كسروية: نسبة إلى أكاسرة فارس في فخامة فرشها وسعة الإنفاق عليها من مظالم الرعية.

(4) جالوتية: نسبة إلى جالوت، أي فيها ازدهار وكبر وعجرفة.

ماردية،⁽¹⁾ وولايتكم فرعونية، وقضاتكم عاجلية⁽²⁾ أصحاب رشوة غشاشية، ومماتكم جاهلية فأين المحمدية، وقال:

أيها المناجي ربّه بأنواع الكلام والطالب مسكنه في دار السلام
والمتسوف للتوبة عاماً بعد عام وما أراك منصفاً لنفسك بين الأنام
إنك لو رافقت يومك يا غافل بالصيام وأحييت طول ليالك بالقيام
واقتصرت بالقليل من الماء والطعام لكنت أحرى أن تنال شرف المقام
والكرامة العظيمة من رب الأنام والرضوان الأكبر من ذي الجلال والإكرام

قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله في حكمه:

كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته.

وقال ﷺ: «أصل كل معصية وشهوة وغفلة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضا منك عنها».

وقال ﷺ: «من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من الزلات».

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعا في الدين بالرأي لم يبعث بها الرسل
حتى استخف بدين الله أكثرهم وفي الذي حملوا من حقه شغل
وقال أيضاً رحمه الله ورضي عنه:

يا هاتكأ حرم الرجال وقاطعاً سبل المودة عشت غير مكرم

(1) ماردية: الأرجح أن تكون نسبة إلى المردة في سعة الرقعة وغنى الثمار والبعد عن القصد والتواضع.

(2) عاجلية: الأرجح أن تكون اللفظة «عاجلية» أي من صفات العاجلة وهي الدنيا الفانية أي أن القضاة يطلبون الثراء والجاه ولو جاء من غير وجه شرعي.

لو كنت حراً من سلالة ماجد ما كنت هتاكاً لحرمة مسلم
من يزُنْ يُزَنَ به ولو بجداره إن كنت يا هذا ليباً فافهم
قيل: إن الشيطان قال للمرأة: أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي
به فلا أخطئ، وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي.

حكايات ونوادر عن حال بعض العصاة وشيء من المواعظ:

حكى أنه كان في زمن النبي ﷺ: شاب يسمى علقمة وكان كثير الاجتهاد في
طاعة الله في الصلاة والصوم والصدقة فمرض واشتد مرضه فأرسلت امرأته إلى
رسول الله ﷺ إن زوجي علقمة في النزاع فأردت ان أعلمك يارسول الله بحاله
فأرسل النبي ﷺ عماراً وصهيباً وبلاً، وقال: امضوا إليه ولقنوه الشهادة فمضوا إليه
ودخلوا عليه فوجدوه في النزاع الأخير فجعلوا يلقنونه (لا إله إلا الله) ولسانه لا
ينطق بها فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه أنه لا ينطق لسانه بالشهادة فقال النبي
ﷺ: هل من أبويه أحد حي قيل: يارسول الله أم كبيرة السن، فأرسل إليها رسول الله
ﷺ، وقال للرسول: قل لها إن قدرت على المسير إلى رسول الله ﷺ، وإلا فقري في
المنزل حتى يأتيك، قال فجاء إليها الرسول، فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت:
نفسي فداء أنا أحق بإتيانه فتوكت وأقامت على عصي وأت رسول الله ﷺ، فسلمت
فرد عليها السلام، وقال يا أم علقمة أصدقيني وإن كذبت جاء الوحي من الله تعالى:
كيف كان حال ولدك علقمة؟ قالت يارسول الله: كثير الصلاة كثير الصيام كثير
الصدقة، قال رسول الله ﷺ: فما حالك، قالت: يا رسول الله أنا عليه ساخطة، قال
ولم؟ قالت يا رسول الله كان يؤثر على زوجته ويعصيني، فقال رسول الله ﷺ: إن
سخط أم علقمة حجب لسان علقمة عن الشهادة، ثم قال: يا بلال انطلق واجمع لي
حطباً كثيراً، قالت: يارسول الله، وما تصنع، قال: أحرقه بالنار بين يديك، قالت:
يارسول الله ولدي لا يحتمل قلبي أتحرقه بالنار بين يدي، قال: يا أم علقمة
عذاب الله أشد وأبقى فإن سرك أن يغفر الله له فارضي عنه فو الذي نفسي بيده لا
ينتفع علقمة بصلاته ولا بصيامه ولا بصدقته ما دمت عليه ساخطة فقالت يا

رسول الله إني أشهد الله تعالى وملائكته ومن حضرني من المسلمين أنني قد رضيت عن ولدي علقمة، فقال رسول الله ﷺ: انطلق يا بلال إليه وانظر هل يستطيع ان يقول لا إله إلا الله، أم لا، فلعل أم علقمة تكلمت بما ليس في قلبها حياء مني فانطلق بلال، فسمع علقمة من داخل الدار يقول (لا إله إلا الله) فدخل بلال، فقال: يا هؤلاء إن سخط أم علقمة حجب لسانه عن الشهادة وإن رضاها أطلق لسانه، ثم مات علقمة من يومه فحضره رسول الله ﷺ فأمر بغسله وكفنه ثم صلى عليه وحضر دفنه ثم قام على شفير قبره وقال: يا معشر المهاجرين والأنصار، من فضل زوجته على أمه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً إلا أن يتوب إلى الله ﷻ ويحسن إليها ويطلب رضاها، فرضى الله في رضاها وسخط الله في سخطها، ذكر القصة الإمام الذهبي في كتاب الكبائر.

حكى أن رجلاً عبد الله سبعين سنة، فبينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقعت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها، وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت إليها وأقبل على عبادته فولت المرأة فنظر إليها فأعجبته فملك قلبه، وسلبت لبه، فترك العبادة وتبعها، وقال إلى أين؟ فقالت: إلى حيث أريد، فقال: هيهات صار المراد مريداً والأحرار عبيداً ثم جذبها فأدخلها معبده فأقامت عنده سبعة أيام فعند ذلك تذكر ما كان فيه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام، فبكى حتى غشي عليه فلما أفاق، قالت له: يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيري، وأنا ما عصيت الله مع غيرك، وإنني أرى في وجهك أثر الصلاح، فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرني، فخرج العابد المذنب هائماً على وجهه فأواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان وكان بالقرب منها رجل محسن يتصدق عليهم في كل ليلة بعشرة أرغفة فجاء الرجل المحسن على عادته بالخبز فمد ذلك الرجل العاصي يده فأخذ رغيفاً فبقي رجل لم يأخذ شيئاً فقال أين رغيفي؟ فقال كل واحد من العميان: أنا لم آخذ إلا رغيفاً واحداً، فتأثر الرجل العاصي بهذا المنظر، وكان في حالة جوع شديدة فناول الرغيف الذي أخذه لصاحبه، وقال لنفسه أنا أحق أن أبيت طاوياً لأنني عاص،

وهذا مطيع، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل فر من ذنبه وجاء طائعاً، وقالت ملائكة العذاب: بل هو رجل عاص، فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليالي، فوزنوها فرجعت المعصية على العبادة، فأوحى الله لهم أن زنوا بمعصية السبع ليالي بالرغيف الذي أثر على نفسه، فوزنوا ذلك فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله توبته!!؟ وهن

قال الشاعر:

إياك إياك فتنة النساء فلم يخلق لنا الله مثلهن فتانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له وهن أضعف خلق الله أركاناً
وقال آخر:

ذر الدنيا وإن راقتك حسناً ولا تغررك ربوات الحجال
فليست فتنة في الأرض تخشى أضر من النساء على الرجال
وحكي أن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم عليه السلام فقال: يا أبا إسحاق إني مسرف عن نفسي، فأعرض علي ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً.
فقال: إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك المعصية، قال: يا أبا إسحاق.

قال: أما الأولى، فإذا أردت أن تعصي الله تعالى فلا تأكل رزقه.
قال: فمن أين آكل؟ وكل ما في الأرض رزقه!
قال: يا هذا، أفحس بك تأكل رزقه وتعصيه؟
قال: لا، هات الثانية.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده.

قال: هذا أعظم فأين أسكن؟

قال: يا هذا، أفحس بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟

قال: لا، هات الثالثة.

قال: وإذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فاعصه فيه.

قال: يا إبراهيم ما هذا وهو يطلع على ما في السرائر؟

قال: يا هذا، أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويعلم ما تجاهر به؟

قال: لا، هات الرابعة.

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له: أخرني حتى أتوب توبة نصوحاً وأعمل صالحاً.

قال: لا يقبل مني.

قال: يا هذا، فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟

قال: هات الخامسة.

قال: إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم.

قال: إنهم لا يدعوني، ولا يقبلون مني.

قال: فكيف ترجو النجاة إذن؟؟

قال: يا إبراهيم، حسبي، حسبي، أنا استغفر الله وأتوب إليه، فكان لتوبته وفيأ، فلزم العبادة واجتنب المعاصي حتى فارق الدنيا.

ولله در رابعة العدوية إذ تقول:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه
لو كان حبك صادقاً لأطعته
هذا لعمرى في القياس بديع
إن المحب لمن يحب مطيع
وقال آخر:

جسمك بالحمية حصته
وكان أولى بك أن تحتمي
مخافة من ألم طاري
من المعاصي خشية النار

يحكى أن رجلاً كانت له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ، فمر في بعض الأيام في مقبرة فأخذ منها عظماً فتفتت في يده ففكر في نفسه، وقال لها: ويحك كأني بك وقد صار عظمك كهذا رفاتا والجسم تراباً فندم على تفريطه وعزم على التوبة ورفع رأسه إلى السماء، وقال: إلهي وسيدي، ألقيت إليك مقاليد أمري فاقبلني وارحمني، ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب فقال: يا أماه، ما يصنع العبد الأبق إذا أخذه سيده، قالت يخشعُ لملبسه ومطعمه ويغسلُ يديه وقدميه، فقال: أريد جبة من صوف وأقراصاً من شعر وقيدتين وافرغلي بي كما يفعل بالعبد الأبق لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني به ما أراد فكان إذا جن عليه الليل أخذ في البكاء، ويقول لنفسه: ويحك يا نفسي ألك قوة على النار كيف تعرضت لغضب الجبار! ولا يزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه: يا بني أرفق بنفسك، فقال دعيني أتعب قليلاً لعلي أستريح طويلاً يا أماه، إن لي غداً موقفاً طويلاً بين يدي رب جليل، ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل أو إلى شر عظيم، قالت يا بني خذ لنفسك راحة، قال: لست للراحة أطلب، كأنك يا أماه غداً بالخلائق: هم يساقون إلى الجنة وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه فأخذ في البكاء والعبادة وقراءة القرآن، فقرأ في بعض الليالي (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)، ففكر فيها وجعل يبكي حتى غشي عليه فجاءت أمه فنادته فلم يجبها، فقالت له: يا حبيبي وقرة عيني، أين الملتقى فقال بصوت ضعيف يا أماه، إن لم تجدني في القيامة فأسألي مالكاً خازن النار عني فشقه شهقة فمات رحمه الله، فغسلته أمه وجهزته وخرجت تنادي: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار فجاء الناس من كل جانب، فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً في ذلك اليوم، فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر في الجنة وعليه حلة خضراء وهو يقرأ الآية الكريمة ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ ﴿١٣﴾﴾، ويقول وعزته وجلاله رحمني وغفر لي وتجاوز عن سيئاتي، ألا أخبروا عني والدتي بذلك!

حدث المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت:

كيف أصبحت؟

قال: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله جل ذكره وارداً، ولا والله ما أدري روعي تصير إلى الجنة فأهينها أو إلى النار؟ فأعزيها ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي، وضافت مذاهبي	جعلت الرجا مني لعفوك سلماً
تعاطمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفوي عن الذنب لم تنزل	تجود وتعفو منة وتكرماً
فلولاك لم يصمد لإبليس عابد	فكيف وقد أغوى صفيك آدماء
فلله درُّ العارف النذب أنه	تفيض لفرط الوجد أجفانه دماً
يُقيِّمُ إذا ما الليل مدَّ ظلامه	على نفسه من شدة الخوف مأتماً
فصيحاً إذا ما كان في ذكر ربه	وفي ما سواه في الوري كان أعجماً
ويذكر أياماً مضت من شبابه	وما كان فيها بالجهالة أجراً
فصار، قرين الهمّ طول نهاره	أخا الشهود والنجوى إذا الليل أظلماً
يقول حبيبي أنت سؤلي وبغيتي	كفا بك للراجين سؤلاً ومنعماً
ألست الذي غديتني وهديتني	ولا زلت منانا عليّ ومنعماً
عسى من له الإحسان يغفر زلتي	ويستر أوزاري وما قد تقدماً

يحكى أن رجلاً من المترفين جعل أكثر جهده التلذذ بالشهوات المحرمة، كان متهاوناً في الدين ومحتقراً لأمر الناس، فبينما هو في ليلة نائم على فراشه، إذا يرى كأنه في بركة مقفرة وهو عريان جائع وعطشان وعلى ظهره حمل ثقل، فإذا بمخلوق فظيع الصورة بيده حديدة وهو يقرب نحوه ليضربه فلما رآه ولّى هارباً فقابله جبل فيه مسلك ضيق ووعر، حتى إذا انتهى إلى قمته هوى منها في واد عميق... من هول ما رأى صرخ صرخة فسمعه جاره الذي كان رجلاً صالحاً وعالمًا بتأويل الرؤيا فنهض مسرعاً إليه لينجده ولما وصل عنده، قص عليه رؤياه في خوف وهلع، فقال الرجل الصالح:

إن رؤياك البرية المقفرة فهو براءة الدنيا منك يوم تموت، وأما عريك، فهو عري من الأعمال الصالحة التي بها ثواب الآخرة، وأما جوعك وعطشك فهو رغبتك وحرصك في طلب شهوات الدنيا، وأما الحمل الثقيل الذي كان على ظهرك فهو ثقل أوزارك وسوء أعمالك، أما المخلوق الفظيع الصورة فهو منكراً أفعالك وأما المسلك الضيق والوعر فهو طريق الغواية الذي تسير عليه وأما الوادي السحيق فهو الهاوية التي تصير إليها نفوس الأشرار وأرواح الفجار.

لقد كانت هذه الرؤيا موعظة لكي يتوب المذنب ويرجع عما كان فيه من غفلة فتصدق بشطر ما له على الفقراء، وسأل الله المغفرة وإن يكشف ما به من هم وخوف على مصيره ويرحم الله من قال:

تزود ما استطعت لدار خلد	فخير الزاد المتقيننا
ولا يغرك في الدنيا ثراء	هناك ترى أجور العامليننا
تبصر يا هداك الله إنا	نسير على طريق السابقينا
فإن الموت غاية كل حي	وبطن الأرض مثنوى العالمينا
ألم تعلم بأن اللاء كانوا	ملوكاً في القرون الغابرينا
أضاعوا العمر في لهو وظلم	وحادوا عن طريق المتقيننا
ولم يجدوا لدفع الموت عنهم	سبيلاً فاستكانوا صابرينا
نعيم الخلد لا يفنى فسارع	لأعمال العباد الصالحينا

موعظة⁽¹⁾

لقد امتلأت الأرض من الشر ووسائله، وضجت وما فيها مما وصل إليه من المعاصي الإنسان وإن شئت فزر أي جهة من جهات العالم ترى ما يتقطع له قلبك حسرات أفتتن الناس بزخارف الدنيا فاستولت على قلوبهم.

وملكتها فنسوا يوم الحساب وأصبحت المعاصي أمراً مألوفاً عند كثير من

(1) من كتاب: موارد الظمآن لدروس الزمان الجزء الثالث.

الناس وغلب المستقيمون على أمرهم فلم يستطيعوا إزالتها فتمادى المجرمون على انتهاك الآداب فتفاقم الخطب ثم تفاقم إلى أن تهبت الدنيا بالموبقات، خَفَّ الزنى الذي هو من كبائر الذنوب حتى صار الغيور المنكر له المَقْبُحُ يسمى رجعيّاً لا يعرف الحرية مع أن الزنى من بين المعاصي، عار تَسُوذُ له الوجوه، وتنتكس له الرؤوس، وتنهدم به بيوت المجد العالية، وهان التعامل بالربا مع أنه من بين سائر المعاصي قد تواعد الله فاعله المستمِرُّ على التعامل به بالحرب وقارف كثير من الناس المسكرات مع أن الخمر أم الخبائث وهذه شهادة الزور قد هانت مع أنها من عظام الذنوب وهذه فاحشة اللواط قد انتشرت انتشار الوباء، مع أن القرآن يحكي عن أمة كانت تفعل ذلك، أنها خسف بها، وأمطرت عليها حجارة من سجيل وأما الأرض فهان اغتصابها مع أن المغتصب يكون طوقاً لمغتصبه في دار الانتقام، وأما الأموال والأعراض فحدث عن الاستخفاف بها وانتهاكها ولا حرج، وهذا الغش قد صار عادة لا يكاد يسلم منه معامل مع أن النبي ﷺ قال: «من غشنا فليس منا» وهذا حلق اللحية قد أصبح عند كثير من الناس كأنه واجب مع أمر النبي ﷺ بإعفائها، هذا وأضعاف أضعافه حاصل في هذا العصر المظلم الحال الذي عادت فيه غربة الدين.

قال ابن الجوزي⁽¹⁾ رحمه الله:

الحذر الحذر من المعاصي فإنها سيئة العواقب، والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات فإنها المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه سبحانه ولا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة، فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها، لأنه عند التذاذة يقف بإزائه علمه بتحريمها وحذره من عقوبتها، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي وهو الله فيتنصص عيشه في حال التذاذة فإن غلبه سكر الهوى كان القلب متنصص من هذه المراقبات، وإن كان الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة ثم خزي دائم وندم ملازم وبكاء متواصل وأسف على ما كان مع طول الزمان حتى أنه

(1) من كتاب: موارد الظمان لدروس الزمان الجزء الثالث

لو أقبح آثارها وأساء أخبارها.

سموك يا عصر الظلام سفاهة
عصر الضياء وأنت شر الأعصر
وتقدمت فيك الحضارة حسب ما
قالوا فيا وحشيا المتحضر
والعالم قد يأتي بكل بلية
ويسير نحو الموت المستبصر



الخاتمة في الحث على التوبة والاقلاع عن المعاصي

قال الشيخ ابن عاشر رحمه الله

وتوبة من كل ذنب تجترم يجب فوراً مطلقاً وهي الندم
بشترط الإقلاع ونفي الإصرار وليتلا في ممكناً للاستغفار
وحاصل التقوى اجتناب وامتنال في ظاهر وباطن إذ تنال
قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور:

31 وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ^٤ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ^٥ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ^٦ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ^٧ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ^٨ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ^٩ ﴾ الفرقان 68 - 71.

أخرج مسلم: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها».
وأخرج الترمذي وصححه «إن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً أو سبعون سنة فتحة الله ﷻ للتوبة يوم خلق السماوات والأرض فلا يعلقه حتى تطلع الشمس منه» وصححه أيضاً «إن الله تعالى جعل المغرب باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله وذلك لقوله ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا ﴾ الآية الأنعام» قيل: وليس في هذه الرواية ولا الأولى تصريح برفعة كما صرح به البيهقي، انتهى، ويجاب بأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي فله حكم المرفوع.

وروى الطبراني بسند جيد «للجنة ثمانية أبواب سبعة أبواب مغلقة وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه».

وأخرج ابن ماجه بسند جيد «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتن لتاب الله عليكم».

وروى الحاكم وصححه: «من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإجابة».

وروى الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» قال المنذري: قوله فليعمل ما شاء، معناه والله أعلم أنه ما دام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ولم يعد إليه، بدليل قوله ثم أصاب ذنباً آخر فليعمل إذا كان هذا دأبه ما شاء لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره لا أن المعنى أنه يذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإن هذه توبة الكذابين وجماعة وصححوه: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها، وإن زاد زادت حتى يغلق بها قلبه فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ المطففين» إلخ.

وروى الترمذي حسنه: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر: أي تبلغ روحه حلقومه» وللطبراني بسند حسن لكن فيه انقطاع ولليهيقي بسند فيه مجهول عن معاذ قال: «أخذ بيدي رسول الله ﷺ فمشى ميلاً ثم قال: يا معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ورحم اليتيم وحفظ الجوار وكظم الغيظ ولين كلام وبذل السلام ولزوم الإمام والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وقصر الأمل وحسن العمل، وأنهاك أن تشتم مسلماً، وتصدق كاذباً أو تكذب صادقاً أو تعصي إماماً عادلاً وأن تفسد في الأرض، يا معاذ اذكر الله عند كل شجرة وحجر وأحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية».

وللأصفهاني أيضاً: «النادم ينتظر من الله الرحمة والمعجب ينتظر المقت واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله، وإنما الأعمال بخواتمها، والليل والنهار مطيتان فأحسنوا

السير عليهما إلى الآخرة، واحذروا التسويف فإن الموت يأتي بغتة ولا يغتر أحدكم بحلم الله ﷻ فإن النار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿الزلزلة﴾.

وللطبراني بسند صحيح لكن فيه انقطاع: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» وروى البيهقي من طريق آخر وزاد: «والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه».

ولابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه: «الندم توبة» أي أنه معظم أركانها كخبر: «الحج عرفة» ولا بد في الندم أن يكون من حيث المعصية وقبحها وخوف عقابها بخلافه لنحوهتك أو ضياع مال على المعصية أو نحو ذلك وللحاكم وصححه ولكن فيه ساقط: «ما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفره منه».

ولمسلم وغيره: «والذي نفسي بيده لو لم تذبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ولجاء بقوم غيركم يذبون ويستغفرون فيغفر لهم».

ولمسلم: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس، أحد أحب إليه من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل».

وفي مسلم: «إن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت يا رسول الله أصبت حداً فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: أحسن إليها فإذا وضعت فأنتني بها ففعل بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها، فقال عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت! قال ﷺ: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل ممن جادت بنفسها لله عز وجل».

وروى الترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة

أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ولكن سمعته أكثر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطها ستين ديناراً على أن يطأها فلما فقد منها الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال ما يبكيك أكرهتك قالت: لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: أتفعلين أنت هذا وما فعلته قط اذهبي فهي لك، وقال لا والله لا أعطي بعدها أبداً فمات في ليلته فأصبح مكتوباً على بابه إن الله قد غفر للكفل» وصح عن أبي مسعود ؓ قال: كانت قربتان إحداهما صالحة والأخرى طالحة فخرج رجل من القرية الطالحة يريد القرية الصالحة فأتاه الموت حيث شاء الله، فاختصم فيه الملك والشيطان، فقال الشيطان والله ما عصاني قط، وقال الملك: إنه قد خرج يريد التوبة فقضى الله بينهما أن ينظر إلى أيهما أقرب فوجدوه أقرب إلى القرية الصالحة بشبر فغفر له قال معمر: سمعت من يقول قرب الله إليه القرية الصالحة. وروى الشيخان: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعاً وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال له: إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا بلغ نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة، جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما هو أدنى كان له فقاوسوا فوجدوا أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة» وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها» وفي رواية: «فوجده إلى هذه أقرب بشبر فغفر له» وفي رواية قال قتادة: قال الحسن: «ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت ناء ب صدره نحوها».

وروى الطبراني بسند جيد: «أن رجلاً أسرف على نفسه فلقي رجل فقال إن

الآخر قتل تسعاً وتسعين نفساً كلهم ظلماً فهل تجد لي من توبة؟ فقال: إن حدثتك أن الله لا يتوب على من تاب كذبتك، وهنا قوم يتعبدون فاتهم تعبد الله معهم فتوجه إليهم فمات على ذلك فاختصمت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فبعث الله إليهم ملكاً فقال قيسوا ما بين المكانين فأبهم كان أقرب فهو منهم فوجدوه أقرب فهو منهم فوجدوه أقرب إلى دبره التوابين بأنملة فغفر له « وفي رواية له: «ثم أتى راهباً آخر فقال: إني قتلت مائة نفس فهل تجد لي من توبة؟ فقال أسرفت ما أدري ولكن هنا قريتان يقال لها نصرة والأخرى كفر، فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة لا يثبت فيها غيرهم فانطلق إلى نصرة فإن ثبت فيها وعملت عمل أهلها فلا شك من توبتك فانطلق يريدتها حتى إذا كان بين القريتين أدركه الموت فسألت الملائكة ربها عنه، فقال: انظروا إلى أي القريتين كان أقرب فاكتبوه من أهلها فوجدوه أقرب إلى نصرة بقيد أنملة فكتب من أهلها».

وعن مسلم واللفظ له والبخاري بنحوه: قال الله ﷻ «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني، والله أفرح بتوبة عبده من أحكم يجد ضالته في الفلاة، ومن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإذا قبل يمشي أقبلت إليه أهرول».

وروى أحمد بسند صحيح قال الله ﷻ: «يا ابن آدم قم إلي أمش إليك وامش إلي أهرول إليك».

وروى الشيخان: «والله أفرح بتوبة عبده من أحكم سقط على بغيره وقد أضله بأرض فلاة» وروى مسلم: «الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلت من يده وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح».

وروى الشيخان: «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية

مهالكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته» الدوية بفتح المهملة وتشديد الواو والياء الفلاة القفر والمفازة.

وروى الطبراني بسند حسن: «من أحسن فيما بقي غفر له ما مضى ومن أساء فيما بقي أخذ بما مضى وبما بقي».

وروى أحمد والطبراني بسند صحيح: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى خرج إلى الأرض».

وروى ابن حبان في صحيحه والحكم وصححه والطبراني بسند رواه ثقات: «أن معاذ بن جبل أراد سفراً فقال: يا رسول الله أوصني. قال ﷺ اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، قال يا رسول الله زدني، قال إذا أسأت فأحسن ولتحسن خلقك» والترمذي وصححه: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

وروى أحمد بسند حسن أنه ﷺ قال لأبي ذر: «سته أيام ثم أعقل يا أبا ذر ما يقال لك بعد، فلما كان اليوم السابع قال: أوصيك بتقوى الله في سرائرك وعلانيتك وإذا أسأت فأحسن، ولا تسألن أحد شيئاً وإن سقط سوطك، ولا تقبض أمانة».

وعن مسلم وغيره: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها دون أن أمسها فأنا هذا فاقض ما شئت، فقام له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، قال ولم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، فقال الرجل: فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاه فتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ أَحْسَنَ يَذْهَبَنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرِينَ﴾ فقال

رجل من القوم يا رسول الله هذا له خاصة؟ قال: بل الناس كافة» وروى البزار

والطبراني بسند جيد قوي واللفظ له: «إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال أريت من عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً وهو في ذلك لم يترك حاجة - أي وهو الذي يقطع الطريق على الحاج إذا توجهوا - ولا داجة - أي وهو الذي يقطع عليهم إذا رجعوا - إلا أتاها ألدلك من توبة؟ قال: فهل أسلمت؟ أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، قال: تفعل الخيرات وتترك السيئات فجعلن الله تعالى خيرات كلهن، قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: نعم، قال: الله أكبر فما زال يكبر حتى توارى».

تمة

أخرج البزار بسند حسن: «أن بين أيديكم عقبة كؤوداً لا ينج منها إلا كل مخف».

وروى الطبراني بسند صحيح «إن وراءكم عقبة كؤوداً لا يجوزها المثقلون» قال أبو الدرداء راويه، فأنا أحب أن أتخفف لتلك العقبة والكؤود يفتح فضم الهمزة العقبة الصعبة.

وعن الطبراني: «خرج ﷺ يوماً وهو آخذ بيده أبي ذر فقال: يا أبا ذر أعلمت أن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا يصعد بها إلا المخفون؟ قال رجل: يا رسول الله أمن المخفين أنا أم من المثقلين؟ قال: أعندك طعام يوم؟ قال: نعم وطعام غد؟ قال: وطعام بعد غد قال لا، قال: لو كان عندك طعام ثلاث كنت من المثقلين».

وروى الترمذي وحسنه: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل».

وروى البخاري: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شرك نعله والنار مثل ذلك».

وروى الحاكم وصححه: «اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً ولا يزدادون من الله إلا بعداً».

وروى ابن حبان وابن ماجه: «يأبها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحات قبل أن تشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجاوبوا».

وروى الحاكم وصححه: «اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

وروى الترمذي والبيهقي في الزهد: «ما من أحد يموت ألا ندم، قالوا وما ندامته يا رسول الله؟ قال: إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن يكون نزع».

وروى ابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي: «إذا أحب الله عبداً غسله، قالوا وما غسله يارسول الله؟ قال يوفق له عملاً صالحاً بين يدي رحلته حتى يرضى عنه جيرانه أو قال من حوله» غسله بفتح العين والسين المهملتين: من الغسل وهو طيب الثناء، وقال بعضهم: هذا مثل أي وفقه الله لعمل صالح يتحفه به كما يتحف الرجل أخاه إذا أطعمه الغسل.

وروى الترمذي وآخرون بسند صحيح: «أن رجلاً قال يارسول الله أي الناس خير؟ قال من طال عمره وحسن عمله، قال: فأأي الناس شر؟ قال: من طال عمره وساء عمله».

وروى الطبراني: «إن لله عباداً يرضن بهم عن القتل، ويطيّل أعمارهم في حسن العمل ويحسن أرزاقهم ويحييهم في عافية ويقبض أرواحهم في عافية على الفراش ويعطيهم منازل الشهداء».

وروى أحمد بسند أحسن: «لا تمنوا الموت فإن هول المطلاع شديدة، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة».

وروى الشيخان: «لا يتمنى أحدكم الموت إلا محسناً فعله يزداد في إحسانه أو مسيئاً فعله يستعقب».

وروى الشيخان: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله فذكرهم إلى أن قال: ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله».

وروى الشيخان: «كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال

لبنيه: إذا أنا مت فاحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك فأمر الله الأرض فقال اجمعي ما فيك ففعلت فإذا هو قائم فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال خشيتك يارب أو قال مخافتك فغفر له».

وروى الترمذي وقال حسن غريب: «يقول الله ﷻ أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام».

وروى الشيخان: «يقول الله تعالى: إذا أراد عبي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلي فكتبوها له حسنة» الحديث.

وروى ابن حبان في صحيحه: «قال الله ﷻ: وعزتي لا أجمع على عبي خوفين ولا أمنين فمن خافني في الدنيا أمنت في القيامة، ومن أمني في الدنيا أخفته في القيامة».

ولمسلم: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».

وروى الحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما أنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ عليه وسلم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ التحريم. تلاها رسول الله ﷺ يا فتى قل لا إله إلا الله فقالها فبشره بالجنة، فقال أصحابه: يا رسول الله أمن بيننا؟ فقال رسول الله ﷺ أو ما سمعتم قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ إبراهيم.



المصادر والمراجع

- 01 - القرآن الكريم
- 02 - كتاب الزواجر لابن الحجر الهيتمي/ ج الأول.
- 03 - الوسواس الخناس لابن القيم الجوزية .
- 04 - من وصايا الرسول لطفه عبد العفيفي.
- 05 - الفوائد لابن القيم الجوزية.
- 06 - الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري .
- 07 - الداء والدواء لابن القيم الجوزية .
- 08 - لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري .
- 09 - الاستعداد ليوم الرحيل لابن حجر العسقلاني.
- 10 - قل هذا سبيلي لمحمد علوي.
- 11 - موارد الضمآن لدروس الزمان عبد العزيز محمد سلمان/ ج الثالث.
- 12 - المنجد في اللغة والأعلام .

فهرس المحتويات

مقدمة كتاب القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي المورثة للشقاء	
والحزن والمآسي	5
القول الوافي في التحذير من اقتراف المعاصي	7
المورثة للشقاء والحزن والمآسي	7
شؤم المعاصي	32
مكايد ومداخيل الشيطان	42
المعاصي والذنوب وآثارهما على الفرد والمجتمع	59
فصل (1): من آثار المعاصي	71
فصل (2): تولد المعاصي	75
فصل (3): المعصية تضعف إرادة الخير	76
فصل (4): التعود على المعصية مصيبة قاسية	76
فصل (5): هوان العاصي على ربه وشؤمه على نفسه	77
فصل (6): شؤم الذنوب وعاقبة من لم يتب	77
فصل (7): المعصية تورث الذل بعد العز وتزيل النعمة بعد حلولها	78
فصل (8): المعاصي تفسد العقل	78
فصل (9): الذنوب تطبع على القلب	79
فصل (10): الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ	79
فصل (11): حرمان دعوة رسول الله ﷺ	80
فصل (12): ما رآه الرسول من عقوبات العصاة: وما يحل بهم من عذاب	81
فصل (13): الذنوب تحدث الفساد في الأرض وتحرق اليا بس والأخضر	84

فصل (14): الذنوب تطفئ الغيرة وتميز العبد كالحیوان.....	86
فصل (15): المعاصي تذهب الحياء وتضعف الإيمان.....	88
فصل (16): المعاصي تضعف في القلب تعظیم الرب.....	90
فصل (17): المعاصي تنسي الله.....	91
فصل (18): المعاصي تخرج صاحبها من دائرة الإحسان.....	92
فصل (19): العاصي يفوته ثواب المؤمنین.....	93
فصل (20): المعاصي تضعف القلب.....	94
فصل (21): المعاصي تزيل النعم وتبدلها بالنقم.....	96
فصل (22): المعاصي تلقى الرعب والخوف في القلوب.....	97
فصل (23): المعاصي تمرض القلوب وبمرضه يشقى العبد ولا يسعد.....	98
فصل (24): المعاصي تعمي البصيرة.....	100
فصل (25): المعاصي تصغر النفوس.....	101
فصل (26): العاصي في سجن الشيطان.....	101
فصل (27): المعاصي تسقط الكرامة.....	102
فصل (28): المعاصي مجلبة للذم.....	103
فصل (29): المعاصي تؤثر في العقل.....	104
فصل (30): المعاصي توجب القطیعة بین العبد والرب.....	105
فصل (31): المعاصي تمحق البركة.....	106
فصل (32): المعاصي تجعل صاحبها في السفلة.....	109
فصل (33): المعاصي تجرئ على الإنسان اعداءه.....	112
فصل (34): المعاصي تدفع العبد نحو نفسه.....	113
فصل (35): المعاصي تعمي القلب.....	117
فصل (36): المعاصي عدو لدود.....	120
فصل (37): ثغر الأذن.....	124

فصل (38): ثغر اللسان	125
فصل (39): المعصية تنسي العبد نفسه	129
فصل (40): المعاصي تزيل النعم	132
فصل (41): المعصية تباعد بين العبد والملك الموكل به	133
فصل (42): المعاصي مجلبة الهلاك	135
فصل (43): العقوبات الشرعية على المعاصي	136
فصل (44): عقوبات الذنوب شرعية وقدرية	138
فصل (45): القطع بإزاء فساد الأموال	140
فصل (46): في العقوبات القدرية	142
فصل (47): العقوبات القدرية على الأبدان	142
فصل (48): بعض عقوبات المعاصي	145
فصل (49): أصل الذنوب	152
فصل (50): الذنوب الشيطانية	153
فصل (51): الذنوب السبعية	153
فصل (52): الذنوب كبائر وصغائر	154
فصل (53): الحق في المسألة	157
فصل (54): حَكَمُ تُحَذِرُ من المعاصي	158
الخاتمة في الحث على التوبة والاقلاع عن المعاصي	177
تتمة	183
المصادر والمراجع	186
فهرس المحتويات	187





AL-QAWL AL-WĀFI
FĪ AL-TAḤDĪR MIN IQTIRĀF AL-MA'ĀSHI
AL-MŪRITAH LILŠAQĀ' WAL-ḤUZN WAL-MA'ĪSI

by
Al-šayḥ al-Tihāmi Ġītāwi



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah

DKI

أسستها: محمد باي دون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban